

## فهرست

- ٥ - ١ - عصاب شيطاني من القرن السابع عشر  
٤٨ - ٢ - الافعال التسلطية والشعائر الدينية  
٦٠ - ٣ - موازيات ميتولوجية لتمثل وسواسي تشكيلي  
٦٤ - ٤ - حادث من الحياة الدينية  
٦٩ - ٥ - التحليل النفسي واثبات الوقائع في المصمار القضائي  
٨٤ - ٦ - طباق المعاني في الالفاظ البدائية  
٩٣ - ٧ - صعوبة امام التحليل النفسي

# ابليس في التحليل النفسي

ترجمة

جوج طرابيشي

سيغموند فرويد

أبليس  
في التحليل النفسي

ترجمة:

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر  
بيروت

جميع الحقوق محفوظة  
لدار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

ص.ب. 111813

تلفون 314659

309470

الطبعة الاولى

شباط (فبراير) 1980

الطبعة الثانية

شباط (فبراير) 1982

## عصاب شيطاني من القرن السابع عشر<sup>(١)</sup>

رأينا ، في دراستنا لاعصبة (٢) الطفولة ، اننا نستطيع ان نكتشف فيها بالعين المجردة الكثير من الاشياء التي لو مر الزمن عليها لبات اكتشافها بحاجة الى طول تحرر وتقص . وبوسعنا ان نتوقع الوصول الى ملاحظة مماثلة بصدد الامراض العصابية في القرون الماضية ، بشرط ان يتوفر لدينا الاستعداد لتعرفها تحت

- ١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في مجلة ايمانغو ١٩٢٣ ، الكراسة ١ : «علم النفس الديني» .  
٢ - الاعصبة جمع عصاب Névrose : اضطراب وظيفي ، نفسي المنشأ ، في الجهاز العصبي ، وهو في التحليل النفسي ظاهرة صراعية فيها معارضة لدافع غريزي اساسي . -م-

o

## هذه ترجمة كتاب

**Une Névrose Démoniaque  
Au XVIIe Siècle  
Et Autres Essais**

Par Sigmund Freud

In

**Essais De Psychanalyse  
Appliquée**

**Idées - Gallimard  
Paris 1976**

## قصة الرسام كروستوف هايتزمن

انني ادين لمبادرة حميدة من جاب الدكتور ر. باير - ثورن Payer - Thurn ، المستشار في المحكمة العليا ومدير المكتبة الامبراطورية والملكية سابقا للاستئمانات بغيينا ، بما اتاحه لي من فرصة للاطلاع على قصة عصاب من تلك الاعصبة اليبليسية في القرن السابع عشر . فقد اكتشف باير - ثورن في المكتبة المذكورة مخطوطة آنية من مزار ماريازل (٥) . وتسرّد بالتفصيل قصة الخلاص العجائبي ، بتعمّة القديسة مريم العذراء ، من حلف معقود مع الشيطان . وقد ايقظت اهتمامه بها علاقة هذا الموضوع بأسطورة فاوست ، مما حثه على التبحر في دراسة هذا الموضوع وتوضيحه . لكنه حين اكتشف ان الشخص الذي تصف المخطوطة خلاصه كان يشكو من نوبات تشنجية ومن رؤى ، توجه السي ليحصل على رأي طبي في المسألة . وقد اتفقنا على ان ينشر كل واحد منا بحثه على حدة وبصورة مستقلة . واني لأعرب له عن شكري لإيثاره لي بفكرة هذا البحث ، وللمساعدة التي قدمها لي مرارا في دراسة المخطوطة .

ان قصة هذا المريض اليبليسية تقدم لنا بالفعل كنزا ثميناً يتمّ عن وجوده بملء الشفافية ، دونما حاجة الى التمعن في التواويل . مثلما يهدي عرق المنجم المكشوف الى المعدن الصرف الخالص الذي لا سبيل الى استخلاص نظيره الا بشق الانفس من الفلز الخليط الذي يتطلب صهرا .

اسماء مغايرة لاعصبتنا الراهنة . ولا تأخذنا الدهشة اذا ما وجدنا اعصبة تلك الازمنة التالية تتلبس مظهرها يدخل ضمن نطاق علم اليبليسيات ، بينما اعصبة عصرنا الحاضر ، الذي لا يسزال يخطو خطواته الاولى في مضمار علم النفس ، تتبدى . وتسد تنكرت في إهاب امراض عضوية ، اقرب في المظهر الى الهجاس السوداوي Hypochondrie . وقد اكتشف عدد من الباحثين كما هو معلوم ، وعلى رأسهم شاركو (٢) ، ظاهرات الهستيريسا في تميلات المس الشيطاني والانجذاب (٤) التي أورثنا اياها - الفن ؛ والحق انه ما كان ليعسر اكتشاف مضمون العصاب قسي تاريخ هذه الامراض فيما لو وجد عصرئذ من يعيرها المزيد من الانتباه .

لقد كانت النظرية اليبليسية الشائعة في تلك الازمنة المظلمة اقرب الى الصحة والصواب من جميع التاويلات اليبندية التي رأت انور في حقبة الرياضيات التي سميت بـ «العلوم الدقيقة» . فزروب المس تناظر اعصبتنا التي عمدنا الى تفسيرها بالاستعانة من جديد بالقوى النفسية . فالبالسة في نظرنا ؛ نحن ؛ رغبات شريفة ، مستهجنة ، تنبع من دوافع مكبوحة . مكتوبة . وكل ما هنالك اننا نتحاشى اسقاط هذه الخلائق النفسية في العالمسم الخارجي على نحو ما كان يفعل العصر الوسيط ؛ بل ندعها تولد في حياة المرضى الداخلية حيث مكان اقامتها .

٣ - جان مارتن شاركو : طبيب فرنسي ١٨٢٥ - ١٨٩٣ ، مشهور بأبحاثه في الامراض العصبية ؛ درس عليه فرويد لفترة وجيزة من الزمن .  
٤ - الانجذاب Extase : مرض عصبي يتميز بالنطح العقلي ولبان البصر وجود الجسم وفقدان الحساسية .

تورط في علاقة محرمة مع ابليس (٨) . وللحال اعترف بأنه كان قبل تسع سنوات ، في زمن وهنت فيه مقدرته الفنية وخاف ان تضيق به سبل العيش ، قد استسلم لإغراء الشيطان - الذي كان قد سعى تسع مرات الى ايقاعه في التجربة - وتعهد له خطيا بأن يسلس له قياد جسمه وروحه لدى انقضاء الميقات . وكان أجل ذلك قد اقترب : الرابع والعشرون من الشهر الجاري آنذ (٩) . وعض الشقي اصابع الندم وداخله الاعتقاد بأن نعمة والدة الله ، عذراء ماريازل ، هي وحدها التي تستطيع انقاذه بإرغامها ابليس على ان يعيد اليه العهد الذي خطه بدمه . ولهذا اباح كاتب التوصية لنفسه ان يوجه رسالته الى رهبان ماريازل من الآباء الصالحين ليشملوا بعطفهم وحسن التفاتهم «هذا الرجل البائس الذي ليس له من معين» (١٠) .

ذلك ما كتبه خوري بوتنبرون ، ليوبولدوس براون ، فسي الاول من ايلول ١٦٧٧ .  
وبوسعي الان ان اتابع تحليل المخطوطة . وهي تتألف مسن الاقسام الثلاثة التالية :

١ - من عنوان ملون يمثل مشهد عقد العهد ومشهد الخلاص في مزار ماريازل ؛ وعلى الصفحة التالية توجد ثمانية رسوم ، ملونة ايضا ، لظهورات لاحقة للشيطان مع تبادات مقتضبة باللغة

٨ - نوه هنا على عجل باحتمال ان تكون هذه الاسئلة قد «أوحت» للمريض بفكرة توهم حنقه مع الشيطان .

9 — Quorum Et Finis 24 Mensis Hujus Futurus  
Appropinquat

١٠ - باللاتينية في النص : Miserum Hunc Hominem Omni  
Auxilio Destitutum.

تنقسم المخطوطة ، التي امامي منها نسخة طبق الاصل ، الى قسمين مختلفين تماما : رواية إخبارية محررة باللاتينية بقلم الكاتب او الناسخ الراهب ، وجزء من يوميات المريض مكتوب بالالمانية . ويشتمل القسم الاول على مقدمة وعلى قصة الشفاء المعجبي ؛ اما القسم الثاني فان لم يكن قد حظي باهمية بالنسبة الى رجال الكنيسة ، فان ذلك لا يزيد الا نقاسة بالنسبة الينا نحن . فإسماه كبير في تعزيز حكمتنا الذي لا يزال يتسم بالتردد بصدد هذه الحالة المرضية ، ومن حق أولئك الرهبان علينا ان نشكرهم على حفظهم تلك الوثيقة ، مع انه ما كان من الممكن ان تخدم ماريهم ، هذا ان لم نقل انها. تناقضها .

قبل المضي قدما الى الامام في دراسة الكراسة الصغرى المخطوطة والمعنونة باسم Trophaeum Mariano - Cellense ، يجدر بي ان انقل للقراء شطرا من مضمونها اقتبسه مسن المقدمة .

في ٥ ايلول ١٦٧٧ اقتيد الرسام البافاري كرسstof هايتزمن ، وهو يحمل رسالة توصية من خوري بلدة بوتنبرون (جنيبوب النمسا) ، الى ماريازل ، القريبة منها (٦) . وكان قد اقام عدة اشهر في بوتنبرون ، يزاول فيها فنه ، وفيها اصابته في ٢٩ آب ، وهو في داخل الكنيسة ، تشنجات رهيبة ؛ ولما تجددت هذه التشنجات في الايام التالية فحصه ال Praefectus Dominici Pottenbrunnensis (٧) ، وسأله عما يعذبه وان كان

٦ - لم ترد اية اشارة في اي موضع الى عمر الرسام . وبوسننا الافتراض ، بحسب السياق ، انه كان رجلا بين الثلاثين والاربعين من العمر ، وفي أرجح الظن اقرب الى الحد الأدنى . وقد توفي ، كما سئري ، سنة ١٧٠٠ .

٧ - باللاتينية في النص : الوكيل الرباني او المبرر الرسولي لبلدة بوتنبرون .

-٣-

الإلمانية . وما هذه الصور بأصلية ، وإنما نسخ - نسخ أمينة على نحو ما هو معلن رسمياً - عن الرسوم الاصلية بريشة كر . هايتزمن .

٢- من المتن الذي يضم التذكار Trophaeum ويسروى باللاتينية قصة الخلاص العجائبي ، وهو من وضع ناسخ مترهب يوقع نهاية الرواية بـ P.A.E ، ويضيف الى هذه الاحرف اربعة أبيات من الشعر يضمها سيرة حياته . وتتألف الخاتمة من شهادة من الاب كيليان رئيس دير سان - لامبير ، بتاريخ ١٢ ايلول ١٧٢٩ ، يؤكد فيها ، بخط مختلف عن خط الناسخ ، دقة التوافق بين المخطوطة والصور وبين النسخة الاصلية المحفوظة في الارشيف . ولا يرد ذكر السنة التي الف فيها التذكار . ولنسا الخيار بين التسليم بأنه وضع في السنة نفسها التي اعطى فيها الاب كيليان شهادته ، اي في سنة ١٧٢٩ ، وبين إرجاع زمن عمل الناسخ الى ما بين ١٧١٤ و ١٧٢٩ على اعتبار ان آخر تاريخ يرد ذكره في النص هو ١٧١٤ . اما الاعجوبة التي اريد بذلك الكتاب صونها من النسيان فقد حدثت في سنة ١٦٧٧ ، اي قبل فترة تتراوح ما بين ٢٧ و ٥٢ سنة .

٣- من مومات الرسام المحررة بالامانية ، والتي تمتد من لحظة تحرره في الزار الى ١٣ كانون الثاني من السنة التالية (١٦٧٨) . وقد ادرجت في نص التذكار قبيل خاتمته بقليل .

تتألف مادة التذكار بحصر المعنى من رسالة التوصية الآتية الذكر بقلم ليوبولد براون ، خوري بوتنبرون ، بتاريخ ١ ايلول ١٦٧٧ ، ومن رواية الاب فرانسيسكوس رئيس دير ماريسازل وسان - لامبير ، التي يسرد فيها قصة الشفاء العجائبي ، بتاريخ ١٢ ايلول ١٦٧٧ ، اي بعد الرسالة الاولى ببضعة ايام . وقد كتب الحرر او الناسخ P.A.E مدخلا دمج فيه بنوع مسا الوثيقتين كلتيهما ؛ ثم اضاف اليه بعض فقرات للربط غير ذات اهمية ، وفي الخاتمة رواية لمغامرات الرسام اللاحقة . استنادا

الى معلومات جمعت سنة ١٧١٤ (١١) .

هكذا تكون وقائع حياة الرسام قد رويت ثلاث مرات فسي

### التذكار .

١ - في رسالة التقديم بقلم خوري بوتنبرون .

٢ - في التقرير الرسمي للاب فرانسيسكوس .

٣ - في مدخل المثنى .

ومن مقارنة هذه المصادر الثلاثة تبرز بعض الاختلافات التي

لن يكون من غير المجدي تحريها وتبويبها .

استطيع الان ان اتابع قصة الرسام . فبعد طول توبة وتكفير وصلاة في ماريازل ، بتاريخ ٨ ايلول . وهو عيد ميلاد العذراء ، وعند منتصف الليل ، استرد من الشيطان ، الذي ظهر في المزار المقدس في صورة تنين مجنح ، العهد المحرر بالدم . وسوف نعلم لاحقا ، على دهشة عظيمة منا ، ان قصة الرسام كر . هايتزمن تشتمل على عهدين مع الشيطان : عهد كتب بالحبر الاسود ، وآخر حرر بالدم . وفي مشهد التعزيم الآنف الذكر لا يرد ذكر ، كما يستبان ذلك على كل حال من صورة العنوان ، الا للعهد المكتوب بأحرف من دم ، اي للعهد الاخير في ترتيب التحرير .

هنا يمكن ان يساورنا ، بصدد المصادقية التي ينبغي ان تقر بها للرواة الورداء ، شك يبيننا الى ضرورة عدم تبديد مجهودنا في مسألة هي من نتاج اباطيل المعتقدات الرهبانية . فمما ترويه المخطوطة ان عددا من رجال الاكليروس ، المذكورين باسمائهم ، قدموا مساعدتهم طول الوقت للمعزّم عليه . وانهم كانوا حاضرين ايضا عند ظهور الشيطان في المزار . ولو زعمت رواية المخطوطة

١١ - يمكن ان نعتبر ذلك بمثابة توكيد بان التذكار ايضا قد حُسِر

سنة ١٧١٤ . -م-

انهم شاهدوا هم أيضا التنين الشيطاني حين ناول الرسام الصك  
الكتوب بالا حمر (Schedam Sibi Porrigentem Conspexisset)  
لكننا وجدنا نفسنا امام عدد من الفرضيات غير المستحبة .  
وقد يكون اقلها إخراجا فرضية هولسة جماعية . غير ان نص  
الشهادة التي حررها الاب فرانسيسكوس بالذات يضع حدا لهذا  
الشك. اذ لم يرد فيها ذكر البتة لكون الرهبان المساعدين قد راوا  
هم أيضا الشيطان ، بل نصت ببساطة واستقامة على ان الرسام  
انتزع نفسه على حين بغتة من بين ايدي الرهبان الذين كانوا  
يمسكون به ليجرع نحو ركن المزار حيث رأى الشبح ثم عاد بعد  
ذلك والصك بيده (١٢) .

كانت المعجزة كبيرة ، واتصار والدة الله القديسة علسى  
الشيطان لا رب فيه . لكن الشفاء لم يكن للاسف دائما . ولتؤكد  
مرة اخرى على نزاهة الرهبان اذ لم يخفوا هذه الواقعة عمن  
الانظار . فقد غادر الرسام ماريازل بعيد ذلك . وهو في احسن  
حال ، وقصد فيينا حيث اقام لدى شقيقة له متزوجة . وهناك  
انتابته ، في ١١ تشرين الاول ، نوبات جديدة ، وأكثرها خطير .  
وقد اوردت اليوميات خبرها حتى يوم ١٣ كانون الثاني . كانت  
عبارة عن رؤى ، وعن غيبوبات كان المريض يحس انثناءها ويعاين  
شتى الاشياء ، وعن حالات تشنجية ترافقها احساسات مؤلمة  
للغاية ، ومرة شلل في الساقين ، وهكذا دواليك . لكن ليس  
الشيطان من كان يعود هذه المرة ، وانما اشخاص قديسون  
كالمسيح والعذراء القديسة بنفسها . والعجيب في الامر ان

اوجاعه الناجمة عن هذه الرؤى القديسية وعن العقوبات التي كانت  
تنزلها به ما كانت تقل عن تلك التي كان يعانيها سابقا تحت وطأة  
علاقته بالشيطان . بل انه يضع في يومياته هذه الاحداث الجديدة  
في باب تجليات الشيطان ، وقد تشكى من تجليات السروح  
الشري (١٢) حين عاد في ايار ١٦٧٨ الى ماريازل .

وكانت الدريرة التي تقدم بها الى الرهبان لتعليل عودته انه لا  
يزال عليه ان يطالب الشيطان بصك عهد آخر كان قد كتبسه  
بالحجر (١٢) . وفي هذه المرة أيضا استجيب التماسه بشفاعة  
العذراء القديسة والآباء الورعاء . لكن الرواية تلزم الصمت بصد  
الكيفية التي حدث بها ذلك . وهي لا تذكر سوى كلمات قلائل :  
Qua Iuxta Votum Reddita (١٥) . من جديد صلى ،  
واستجابة لصلاته اعيد اليه الصك . ولما شعر عندئذ انه قد تحرر  
تماما ، انتسب الى رهبانية اخوة الرافة .

وينبغي ان نقر من جديد بان الطابع المفرض لعمل الناسخ لم  
يحمله مع ذلك على الحيدان عن جادة الصدق الذي من حقنا ان  
نطالب به اي راو لقصة مريض . فهو لا يخفي النتائج التي تمخض  
عنها تحقيق اجري ، بعد وفاة الرسام ، لدى سلطات دير اخوة  
الرافة سنة ١٧١٤ . فالاب الموقر رئيس الديرس يروي ان الاخ  
كريزوستوموس (١٦) تعرض عدة مرات اخرى لهجمات ابليس الذي

١٢ - باللاتينية في النص : Maligni Spiritus Manifestationes

—

١٤ - هذا الصك ، الذي حرد كما هو مذكور في شهر ايلول ١٦٨٨ ، كان  
بالنالي ، بعد تسعة اشهر ونصف شهر ، اي في ايار ١٦٧٨ ، قد تجاوز منذ  
زمن تاريخ استحقاته .

١٥ - باللاتينية في النص : «فأعيد اليه حسب طلبه» . —

١٦ - اي قم الذهب . —

12 — Ipsumque Daemonem ad Aram Sac. Cellae  
per fenestrellam in cornu Epistolae Schedam sibi porri-  
gentem conspexisset eo advolans e Religiosorum manibus,  
qui eum tenebant, ipsam Schedam Ad manum obtinuit...

كان يريد ان يجره الى عقد عيد جديد . ولكن هذا فقط «عندما كان بفرط قليلا في شرب الخمر» . غير انه امكن على الدوام ، بفضل نعمة الله ، رد الشيطان على اعقابيه . وقصد توفي الاخ كريزوستوموس بعد ذلك «بوداعة وملؤه الغراء» بحمي الدق ، في العام ١٧٠٠ . في دير الرهبانية ، في نوشتات على نهر مولدوفا .

- ٢ -

## علة العيد مع الشيطان

اذا نظرنا الى قصة هذا العيد الشيطاني على انها قصة مرض عصابي ، فان مشكلة تحليل العيد - وهي مشكلة ذات صلة وثيقة اصلا بمشكلة تسميم المرض - ستكون اول ما يستأثر باهتمامنا . فلماذا يهب الانسان نفسه للشيطان ؟ صحيح ان الدكتور فاوست يسأل بازدياء : «ما بوسعك ان تعطيني ، وانت نفسك شيطان مسكين ؟» . لكنه لم يكن على حق : فالشيطان يملك ان يعطي ، مقابل نفس خالدة ، كل صنوف الاشياء التي يثمنها بنو البشر عالي التثمين : الشروة ، الامان في خضم الخطر . السلطان على الناس وعلى قوى الطبيعة ، بل حتى الفنون السحرية . ولكن اولاً . وقيل كل شيء ، المتعة ، التمتع بجميلات النساء (١٧) . فماذا يمكن ان

١٧ - انظر في فاوست ، الفصل الاول (مشهد المكتب) :

أود الانزام هنا بخدمتك  
وطاعتك بلا كل ولا ملل ؟  
ويوم تلقى ثانية في العالم الآخر  
عليك ان تعاملني بالمثل .

تكون ، والحالة هذه ، بالنسبة الى كرسطوف هايتزمن علة عهده ؟ ليس لاية رغبة من هذه الرغبات الطبيعية تماما . مهما بدا ذلك باعشا على العجب . وتلافيا لكل حيرة وتردد . حسبنا ان ندقق النظر في التعليقات الغشبية التي يرفق بها الرسام ظيورات الشيطان التي صورها . هاكم . على سبيل المثال . ما جاء في التعليق على الرؤيا الثالثة :

«للمرة الثالثة ظهر لي خلال عام ونصف في هذا المظهر الغطيع . وفي يده كتاب ليس فيه الا شعوذة وسحر اسود...» . لكننا نعلم من التعليق المرافق لظهور لاحق ان الشيطان قرع الرسام تقريبا شديدا لانه «اترق : الكتاب الذي كان قد اعلمن عنه» . وتوعده بان يمزقه اربا اربا اذا لم يستطع تأمينه لسه من جديد .

وفي الظهور الرابع يريه صرة نقود صفراء كبيرة وقطعة كبيرة من النقد الذهبي . ويعدده بان يهبه منها قدر ما يشاء : «لكنني لم اقبل بذلك البتة !» : ومن حق الرسام ، بالفعل ، ان يتباهى بذلك .

وفي مرة اخرى يسأله ان يلهو ويتسلى . ويعلق الرسام على ذلك بقوله : «هذا بالفعل ما حدث بناء على طيبي ، لكنني لم استمر قط اكثر من ثلاثة ايام . وللحال بعد ذلك عدت الى الاستكاف» . ان يكن اذن قد رفض السحر والمال والملاذات ، فما كان له ان يجعلها ضمن شروط العقد . وان المرء لتساوره بالفعل الحاجة الى معرفة ما كان الرسام ينتظره حقا من الشيطان حين نذر نفسه له . وعلى كل ، لا بد ان يكون هناك سبب ما وراء طلب الدخول في اتصال مع الشيطان .

يقدم لنا التذكّار في الواقع بصدد هذه النقطة معلومة ماثرة ماثرة . اذ لما استبدت بالرسام السويداء ، كان قد امسى عاجزا او عاجزا عن العمل . وقد ركبتهم الهموم بصدد تدبير امر



معاشه ، مما يعني انه كان مصابا بهبوط سوداوي مع كف عن العمل وخشية (لها ما يبررها) على قوت يومه . اذن فالقصة التي بين ايدينا قصة مريض فعلا . ونحن نعلم في الوقت نفسه ما كان سبب هذا المرض الذي سماه الرسام نفسه . وبصريح العبارة ، بالسويداء («لذا كان ينبغي ان اتسلى واطرد السويداء») . والمصدر الاول من مصادرنا الثلاثة ، اي رسالة التوصية بقلم الخوري ، لا تأتي الا يذكر حالة الهبوط «adum artis suae progressum pusillanimitate secutum» (١٨) . لكن المصدر الثاني ، اي تقرير الاب فرانسيسكوس ، تمكن من ان يسمي لنا نقطة انطلاق هذا الهبوط او الاكتئاب ، اذ يقبول بهذا الصدد : «accepta Aliqua pusillanimitate ex morte parentis» (١٩) . كذلك جاء في مقدمة الناسخ بالالفاظ نفسها ولكن مقلوبة : «ex morte parentis accepta aliqua pusillanimitate» . اذن فقد توفي والده ، ولهذا وقع فريسة السويداء ؛ وعندئذ ظهر له الشيطان ، وسأله عن سر اضطرابه وحزنه الشديدين ، ووعده بأن «يساعده بكل الوسائل ويسعفه» (٢٠) .

نحن اذن امام شخص يبيع نفسه للشيطان بنية الخلاص من اكتاب نفسي . وهذه في الحق ذريعة ممتازة ! وهي مفهومة تماما بالنسبة الى اي شخص يقدر على وضع نفسه موضع انسان يعاني آلام مثل تلك الحالة ويعرف ، فضلا عن ذلك ، مدى ضآلة قدرة

١٨ - باللاتينية في النص : «ناظرا الى تقدم فنه وقيمته ببوط همة» .م-

١٩ - باللاتينية في النص : «وقد انتراه ببوط الهمة هذا غداة وقساة والنده» . م-

٢٠ - انظر صورة العنوان الاولى والتفسير الواكب لها : الشيطان مشغلا في هيئة «بورجوازي محترم» .

فن الطيب على تسكين هذا الداء . ومع ذلك ، ليس لاحد ممن قرأنا ان يحزر ما العبارات التي صبغ بها العهد المفقود مسع الشيطان او بالاحرى العهدان الانسان ، واولهما كتب بالحجر . وثانيهما حرر بالدم بعد زهاء نصف عام ، وكلاهما محفوظ ، كما هو مذكور . في مدخر ماريازل ، ومنتسوخ في التذكار .

ان هذين العهدين ليعتشان على العجب الشديد من زاويتين انسيين . فبما اولاه لا تضمنان على اي التزام من جانب الشيطان مقابل رهن الخلاص الابدي لديه . كما ان الرسام وحده هو المازم نائيا بملبية طيب الشيطان . وانه اشىء بعيد عن المنطق . بل ضرب من العبث . ان يفامر ذلك الرجل بروحه لا لينال شيئا من الشيطان . بل ليؤدي له شيئا . وأغرب من هذا ايضا الالتزام الواقع على عاتق الرسام . فالعهد الاول . المكتوب بالحجر . ينص على ما يلي :

**انا الموقع هنا ، كرسstof هاينزمن ، انذر نفسي لهذا السيد وكانني ابنه من صلبه لمدة تسع سنوات .**  
**العام ١٦٦٩ .**  
 وينص العهد الثاني . المكتوب بالدم :

**سنة ١٦٦٩**  
**كرستوف هاينزمن . اعهد بنفسه كتابة الى هذا الشيطان ، واعد بان اكون ابنه من صلبه ، وبان اكون بعد تسع سنوات ملكا له جسدا وروحا .**

بعد ان عجبنا بزول كلته متى ما اعدنا ترتيب نص العهد بحيث يتقلب ما يبدو فيه وكأنه مطلب للشيطان الى وعد من جنائسه بالاحرى . ويمثل بالنالي ما يطلبه الرسام منه . وعندئذ يأخذ هذا العهد المفزع معنى مباشرا ويقدمو قايلا للمؤيل على النحو التالي :

يتعهد الشيطان للرسام ، لسنوات تسع ، بأن يقوم له مقام والده المتوفى . فإذا ما انقضى هذا الاجل ، وقع الرسام جسما وروحاً تحت سلطانه ، بحسب الصيغة الدارج استعمالها في هذا النوع من الصفقات . وعليه ، فإن مسار افكار الرسام . انتي كانت حافزه الى فعلته ، يتحدد كما يلي على ما يبدو : لقد فقد . وفاة ابيه . كل رغبة في العمل وكل مقدرة عليه ؛ فان وجد بديلاً لهذا الاب ، فامله عندئذ ان يعرض عن هذه الخسارة . وحتى يغدو المرء سوداوايا بعد وفاة ابيه ، فلا بد ان يكون قد احبه حبا جما . ولكن من المستغرب في هذه الحال ان نخظر في بال الابن فكرة اتخاذ الشيطان بديلاً عن ذلك الاب المحبوب .

- ٣ -

## الشيطان بديل الأب

ان تكن قد اوضحنا بلا مماراة مغزى هذا العهد مع الشيطان بالاستناد الى ذلك التأويل المقلوب . فهذا ما لن يسلم لنا به - أخشى ذلك - فقد هادىء . فبوسع تقد كنهذا ان يواجهنسا بالاعتراضين التاليين . فليس من الضروري اولا اعتبار العهد مقدا ينص على التزامات الطرفين . بل هو لا يشتمل بالاحرى الا على التزام الرسام ؛ على اعتبار ان التزام الشيطان بقي مستبعدا من النص ، بوصفه «مضمرا» بنوع ما . والحال ان الرسام يلتزم التزامين : اولا بأن يعتبر نفسه ابن الشيطان لدى تسع سنوات، ثم بأن يكون ملكه جسما وروحاً بعد مماته . وهذا الاعتراض اذا صح يكون قد قوض احد الاسس التي بنينا عليها استنتاجنا . اما الاعتراض الثاني فمؤداه انه لا يجوز اعطاء عبارة «ان اكون ابنه من صلبه» وزنا اكبر مما ينبغي ، وانها قد لا تعدو ان تكون

اسلوبا دارجا في الكلام على نحو ما فهمها السادة الرهبان . وبالفعل ، لا يترجم هؤلاء الى لائنتهم البتة الموعودة فسي العهدين . بل يكفون بالقول بان الرسام نذر نفسه Mancipavit للشيطان ، متعهدا بان يعيش في الخطيئة وبن ينكر الله والشاوث الاقدس . فما الداعي للابتعاد عن هذا التأويل الذي يكاد يكون بدهيا ولا قسر فيه (٢١) ؟ وفي هذه الحال سيكون الامر في غاية من البساطة : انسان سوداوي ، يفترسه العذاب والضيق المميزان لهذه الحالة الهبوطية . ينذر نفسه للشيطان ويقر له بذلك باعظم سلطان علاجي . وما علينا ان نهم اكثر من اللازم بكون هذا الهبوط ناشئا عن وفاة الاب ؛ فمن الممكن ان تكون له نقطة انطلاق مغايرة تماما . ومثل هذا الاعتراض مشين ومعقول في الظاهر . ومن جديد يجد التحليل النفسي نفسه عرضة لللامة على تعقده الاشياء الاكثر بساطة حبا منه بالتمحك . وعلى رؤيته اسرارا ومعضلات حيث لا وجود لها ، وعلى توصله الى ذلك بنسخمه الاشياء الثانوية الصغيرة . التي لا نعدم نظيرها اينما اجلسنا الطرف ، وبتحمله ايها اوسع الاستنتاجات واغربها . وعيشا قد نردت هنا بان اطراح التحليل النفسي على هذا النحو لن يكون من نتيجته الا انفاء العديد من التشابهات المثيرة وتقطيع الكثير من الارتباطات المرهقة ، مع انه كان من الممكن تسليط باهر الضوء عليها . فمناقضونا سيجيبون في هذه الحال بان هذه التشابهات والارتباطات لا وجود لها بكل بساطة ، وانها مقحمة من قبلنا إقحاما

٢١ - سنوافق نحر انفسنا ، حين سنبحث في موضوع لن ومسى حرر ذلك العهدان ، على ان نضمهما كان ينبغي ان يوضع بالفاظ مانوفة وسيلة الفهم من قبل الجميع . لكن يكفينا ان نحافظ على التباس في المعنى ينكر معه استناد تاويلنا اليه .

ببراعة فائضة عن الحاجة .

لن اقول تمهيدا للرد على ذلك الاعتراضين : لنلزم جانب الاستقامة او جانب الصراحة ، فهذا ما يفترض بنا ان نفعله على الدوام دونما مجهود خاص ، بل ساذهب الى ابعد من ذلك واقول: اذا كان ثمة من لا يؤمن سلفا بقيمة التحليل النفسي . فليس مثال الرسام كز . هايتزمن من القرن السابع عشر هو الذي سيفتعه بها. ولا يدخل اصلا في نيي البتة ان استخدم هذا المثال دليلا على صلاحية التحليل النفسي ؛ بل افترض بالاحرى ان التحليل النفسي معترف به ومقبول ، ثم استخدمه بعد ذلك لتوضيح سر مرض الرسام الشيطاني . وهذا الحق انما استمدته من نجاح ابحاثنا حول طبيعة الاعصبة بوجه عام . اذ يسعنا التوكيد . بكل تواضع ، انه حتى اكثر معاصرنا وزملائنا في المهنة استفلاق ذهن قد طفقوا يسلمون بانه لا سبيل البتة . بدون التحليل النفسي ، الى فهم الامراض العصبية .

«هذه السهام وحدها فتحت طرودة ، هي وحدها» : هذا ما يقر به اوليسس في **فيلوكيتيس** لسوفوكليس (٢٢) .

فان صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاما عصابيا . فليس لنا ان نعتذر عن نظرنا اليه من الزاوية التحليلية النفسية . فالقرائن الصغيرة لها ايضا مغزاها وقيمتها - وعلى الاخص متى ما كان المطلوب تحديد الشروط التي راي فيها العصاب النور . صحيح انه من الممكن التحويل او التهوين من شأنها سواء بسواء، وانها لمسألة حصافة ان يدرك المرء مدى ما يمكن تعليقه عليها من قيمة . لكن اذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي . ولا حتى

بالشيطان ، فلا نملك الا ان ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة الرسام ، سواء الفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة ام لم يجد فيها ما يستأهل توضيحا .

لنعد اذن الى فرضيتنا : ان الشيطان ، الذي ينذر الرسام نفسه له ، هو في نظره بديل الاب . والشخص الذي يظهر الشيطان في صورته للمرة الاولى يتجاوب وهذه الفرضية : فهو بورجوازي محترم متقدم قليلا في السن ، ذو لحية سمراء ، ومعطف احمر ، وقبعة سوداء ، يده اليمنى تستند الى عصا ، والى جانبه كلب اسود (الصورة ١) (٢٢) . وبعد ذلك يظهر الشبح بمظهر مرعب اكثر فاكتر ، بل ربما جاز لنا ان نقول : بمظهر اكثر أسطورية ؛ فمن عدته قرون ومخالب نسر واجنحة خفاش . وفي الاخر يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر . ولنا عودة لاحقا الى تفصيل محدد آخر من تفاصيل هيئته .

حقا انه لمن المستغرب في ظاهر الامر ان يقع الاختيار على الشيطان بدلا عن اب محبوب ؛ بيد ان ما ذلك بغريب الا لاهلة الاولى فحسب ، اذ اننا نعرف وقائع اخرى قيمية بالتخفيف من دهشتنا . فنحن نعلم اولاً ان الله بديل للاب ، او بتعبير ادق اب مبدل ، او صورة عن الاب كما كان يراه المرء ويحس بوجوده في طفولته ، او الفرد في طفولته الخاصة ، او النوع البشري في الازمنة السالفة بوصفه اب العشيبة البدائية . وفي زمن لاحق نظر الفرد الى ابيه غير هذه النظرة، فراه متضائل الاهمية بنوع ما، لكن تلك الصورة الطفلية الاولى ليبت قائمة وانضجرت مع البقايا المتوارثة لذكرى الاب السالف لتؤلف التمثل الفردي عن الله . ونعلم ايضا ، من خلال التاريخ الحميم للفرد كما يعيظ عنه اللثام

٢٢ - فيلوكتيس : في الميتولوجيا الاغريقية بطل من أبطال حصار طرودة اورته هيرقليس اسمه المسومة التي لا تخطئه هدفها ، وعلى قصة حياته بنى سوفوكليس مسرحياته .

٢٢ - لدى غوته يخرج الشيطان نفسه من كلب اسود من هذا النوع .

بالشيطان ، فلا نملك الا ان ندع له مهمة معرفة ما سيفعله بقصة  
الرسام ، سواء أفلح في تفسيرها بوسائله الخاصة ام لم يجد  
فيها ما يستاهل توضيحا .

لنعد اذن الى فرضيتنا : ان الشيطان ، الذي ينذر الرسام  
نفسه له ، هو في نظره بديل الاب . والشخص الذي يظهر  
الشيطان في صورته للمرة الاولى يتجاوب وهذه الفرضية : فهو  
بورجوازي محترم متقدم قليلا في السن ، ذو لحيحة سمراء ،  
ومعطف احمر ، وقبعة سوداء ، يده اليمنى تستند الى عصا ،  
والى جانبه كلب اسود (الصورة ١) (٢٢) . وبعد ذلك يظهر الشبح  
بمظهر مرعب اكثر فاكثر ، بل ربما جاز لنا ان نقول : بمظهر اكثر  
اسطورية ؛ فمن عدته قرون ومخالب نسر وأجنحة خفاش . وفي  
الاخير يظهر الشيطان في المزار في شكل تنين طائر . ولنا عودة  
لاحقا الى تفصيل محدد آخر من تفاصيل هيئته .

حقا انه لمن المستغرب في ظاهر الامر ان يقع الاختيار على  
الشيطان بديلا عن اب محبوب ؛ بيد ان ما ذلك بغريب الا لوهلة  
الاولى فحسب ، اذ اننا نعرف وقائع اخرى قيمية بالتخفيف من  
دهشتنا . فنحن نعلم اولا ان الله بديل للاب ، او بتعبير ادق اب  
مبجّل ، او صورة عن الاب كما كان يراه المرء ويحس بوجوده في  
طفولته ، او الفرد في طفولته الخاصة ، او النوع البشري في  
الازمنة السالفة بوصفه ابا العشرة البدائية . وفي زمن لاحق  
نظر الفرد الى ابيه غير هذه النظرة، فراه متضائل الاهمية بنوع ما،  
لكن تلك الصورة الطفولية الاولى لبثت قائمة وانصهرت مع البقايا  
المتوارثة لذكرى الاب السالف لتؤلف التمثيل الفردي عن الله .  
ونعلم ايضا ، من خلال التاريخ الحميم للفرد كما يميظ عنه اللثام

ببراعة فائضة عن الحاجة .  
لن اقول تمهيدا للرد على ذلك الاعتراضين : لنلزم جانب  
الاستقامة او جانب الصراحة ، فهذا ما يفترض بنا ان نفعله على  
الدوام دونما مجهود خاص ، بل ساذهب الى ابعاد من ذلك واقول:  
اذا كان ثمة من لا يؤمن سلفا بقيمة التحليل النفسي . فليس مثال  
الرسام كرم . هابتزمن من القرن السابع عشر هو الذي سيقتعه بها .  
ولا يدخل اصلا في نيتي البتة ان استخدم هذا المثال دليلا على  
صلاحية التحليل النفسي ؛ بل افترض بالاحرى ان التحليل  
النفسي معترف به ومقبول ، ثم استخدمه بعد ذلك لتوضيح سر  
مرض الرسام الشيطاني . وهذا الحق انما استمدته من نجساح  
ابحاثنا حول طبيعة الاعصبة بوجه عام . اذ بسعنا التوكيد . بكل  
تواضع ، انه حتى اكثر معاصرينا وزملاننا في المهنة استغلق  
ذهن قد طفقوا يسلمون بأنه لا سبيل البتة ، بدون التحليل  
النفسي ، الى فهم الامراض العصابية .

« هذه السهام وحدها فتحت طرودة ، هي وحدها» : هذا ما  
يقر به اوليسس في **فيلوكتيتيس** لسوفوكليس (٢٢) .

فان صح اعتبار عهد رسامنا مع الشيطان استيهاها عصابيا .  
فليس لنا ان نعتذر عن نظرنا اليه من الزاوية التحليلية النفسية .  
فالقرائن الصغيرة لها ايضا مغزاهها وقيمتها ، وعلى الاخص متى  
ما كان المطلوب تحديد الشروط التي رأى فيها العصاب الدور .  
صحيح انه من الممكن التهويل او التهوين من شأنها سواء بسواء .  
وانها لمسألة حصافة ان يدرك المرء مدى ما يمكن تعليقه عليها من  
قيمة . لكن اذا كان ثمة من لا يؤمن بالتحليل النفسي ، ولا حتى

٢٢ - فيلوكتيتيس : في الميتولوجيا الاغريقية يظل من أبطال حصار  
طرودة اورته هيرقليس اسهمه المسومة التي لا تخطئه هدفها ، وعلى قصة  
حياته بين سوفوكليس مسرحياته .  
-م-

التحليل ، ان العلاقات بذلك الاب كانت ، ربما من البداية ، تنازعية ، او انبثقت كذلك على كل حال في وقت مبكر ، بمعنى انما كانت تشتمل على تيارين انفعاليين متناقضين ؛ اي ليس فقط على عاطفة خضوع وحب ، بل كذلك على عاطفة عداوة وتحسب . وهذا النزاع عينه يهيمن . بحسب رؤيتنا الامور ، على علاقات البشرية بالهنما . وانما بهذا النزاع الذي لا نهاية له بين الحنين الى الاب ، من جهة اولى ، وبين الخوف والشخصي البنويين ، من الجبة الثانية ، امكن لنا ان نفسر مناحي هامة من الاديان وتطورات حاسمة على صعيدها (٢٤) .

للمقابل . نعلم ان الشيطان الرجيم ينظر اليه على انه عدو الله وقريب الصلة للغاية بالطبيعة الالهية في آن واحد . بيد ان تاريخه ليس معروفاً بمثل العمق الذي يعرف به تاريخ الله ، على اعتبار ان الاديان لم تتبين كلها ابليس الشرير . خصم الله ؛ ونموذجه في الحياة الفردية يبقى بعيدا عن الانسوار في بادية الامر . لكن الشيء الاكيد ان الالهية يمكن ان تغلب الى اباسة اشرار اذا ما دحرتنا آلهة غيرها . وعندما يغلب شعب مسن الشعوب على امره ، فليس يندر ان تستحيل آلهته الساقطة الى اباسة في نظر الشعب الغالب . لقد كان ابليس العقيسدة المسيحية ، شيطان القرون الوسطى ، هو نفسه ملاكا ساقطاً بحسب الميتولوجيا المسيحية ، ومن جوهر واحد والله فسسي الاصل . ولا حاجة بنا الى رهافة تحليلية كبيرة كيما نحرر ان الله والشيطان كنا متماثلين في الهوية في البداية ، شخصية واحدة انشطرت في زمن لاحق الى وجهين مجبو كل منهما بصفات

متعارضة (٢٥) . وفي الازمنة البدائية للاديان كان الله ذاته يتسم بجميع السمات المخيفة التي عزيت في زمن لاحق الى تقيضه . ان هذه لسيرة تسمية معروفة لدينا جيداً . اد يتحلل التمثل المنطوي على تناقض وتنازع الى شقين صارخي التباين . لكن هذه التناقضات في طبيعة الله البدائية هي انعكاس للازدواجية التي تهيمن على علاقات الفرد بابه بالذات . فان يكن اللسه الرحيم والعدل بديلاً للاب . فلم يأخذنا العجب اذا ما تجسد الموقف التقيض . موقف العقده والكره والتعمرد ، في اخسلاق الشيطان ؛ وعنى هذا الاساس . يكون الاب هو النموذج البدائي والفردى لله والشيطان على حد سواء . ومن هذا المنطلق فسان الاديان لا بد ان تكون حاملة هي نفسها لآثر لا يحصى خلفه فيها واقع ان الاب السلفى كان كائنات خبيث الطوية الى غير ما حد ، اشبه بالشيطان منه بالله .

من المؤكد انه ليس من السهل الى هذا الحد اكتشاف آثر التصور الشيطاني للاب في حياة الفرد النفسية . لكن حين يرسم الغلام الصغير وجوه مكشرة وكاريكاتورية ، فقد نلح في ان نشبت انه يميزاً من ابيه نبياً ؛ وعندما يخاف الصبيان والبنات من اللصوص وقطاع الطرق . فيوسعنا غير ما صعوبة ان نتعرف في هؤلاء الاخيرين مشتقات الاب (٢٦) . كذلك فان البهائم التي تظهر في ارضية الحيوان لدى الطفل هي في اكثر الاحيان بدائل للاب ، مثلما كان الحيوان الطوطمي بديله في الازمنة السالفة .

٢٥ - انظر ت. رايك : الله الاسني والله الغرب . فسي ايمافو ، ٣ ،

١٩٢٢ . في الفصل المنون : الله والشيطان .

٢٦ - يبدو الاب الذئب في حكاية الجديان السبعة المعروفة وانه يقترف جرم سرقة مع خلع .

٢٤ - انظر الطوطم والناو . وتفسيره من التفصيل ت. رايك ؛ مشكلات علم النفس الديني . ١٠ . ١٩١٩ .

لكن من النادر ان نعاين ، بشئ الجلاء الذي نعاين به لدى رسامنا المعصوب (٢٧) من القرن السابع عشر ، واقع ان الشيطان هسو صورة عن الاب وبديله . ولهذا اعربت عن املي ، في بداية هذا النص ، بان تهدينا قصة مرض شيطاني من هذا النوع الى عرق معدن خالص ليس لنا ان نحصل على نظيره من فلزات الترابطات والأعراض العصبية لعصر تال - عصر ما عاد يؤمن بباطسل المعتقدات ولكنه بات مصابا بالمقابل بهجاس المرض - اقول : ليس لنا ان نحصل على نظيره من هذه الفلزات الخام الا بمجهود تحليلي شاق (٢٨) .

واغلب الظن ان اقتناعنا هذا سيعزز اكثر بعد اذا ما تعمقنا في تحليل مرض رسامنا . فليس ثمة من شيء خارق للمألوف اذا ما عانى شخص من الاشخاص ، على اثر وفاة والده ، هبوطا سوداويا وكفا عن العمل . وسنستنتج في هذه الحال انه كان يكنّ لذلك الاب حبا جم . وسنستذكر كيف تتظاهر سويداء حادة في كثير من الاحيان كتعبير عصابي عن الحداد . ولن تكون في هذه الحال الا على صواب ، لكن بشرط الا

٢٧ - المعصوب Névrosé : المصاب بالعصاب . -م-

٢٨ - لكن لم نفلح الا فيما ندر في تحاليلنا في اكتشاف الشيطان كبديل للاب ، فعمل مرد ذلك الى ان هذا الوجه من وجوه ميتولوجيا القرون الوسطى ما عاد منذ زمر يلعب دوره لدى الأشخاص الذين يقصدوننا بتحليلهم .  
 أما في بطر مسيحي القرون المائمية الروع فان الإيمان بالشيطان كان واجبا لا يقل إلزامية عن الإيمان بالله . فقد كان بحاجة الى الشيطان فيما يتمكن من مواجهة الله . ولا تناقض الإيمان في زمن لاحق ، ولا سبب شئ ، اصاب اول ما اصاب شخص الشيطان . ولو امتلنا الجرأة على تطبيق فكرة الشيطان كبديل عن الاب على تاريخ الحضارة . لاستأملت منا معانمات المسجورة في المعصر الوسيط ان ننظر اليها نظرة جديدة .

نستنتج من ذلك ان تلك العلاقات كانت منسوجة من حب خالص . بل على العكس : فالحداد على فقدان الاب سيتحول بسهولة اكبر الى سويداء اذا ما كانت العلاقات به تتسم بسمة الازدواجية . ونحن ، بتشديدنا للهجة على هذه الازدواجية ، نهيء انفسنا لفهم عملية الانتقال من قدر الاب ، كما يفصح عنها عصاب الرسام الشيطاني . ولو كان متاحا لنا ان نجتمع من المعلومات عن شخص كرم . هايتزمن بقدر ما نجتمع منها من مريض من مرضانا الذين نقوم بتحليلهم ، لكان امكن لنا ببسر وسهولة ان نتبحر في تلك الازدواجية ، وان نحمل المريض على ان يتذكر من جديد متى وفي اية مناسبة دعاه الداعي الى ان يخشى جانب ابيه ويبغضه ، ولكان امكن لنا بوجه خاص ان نكتشف العوامل الطارئة التي انضافت الى العوامل النمطية لكراهية الاب ، هذه العوامل التي تكمن جذورها حتما في العلاقات الطبيعية بين الاب والابن . ولعلنا كنا سنجد على هذا الاساس تفسيراً خاصا للكف عن العمل . ومن المحتمل ان يكون الاب في هذه الحال قد عارض رغبة ابنه في ان يصير رساما ؛ ومن ثم فان العجز الذي انتاب هذا الأخير ، غداة وفاة والده ، عن مزاولته فنه ليس ، من جهة اولى ، سوى تظاهر للطاعة المرجاة - وهذه ظاهرة معروفة جيدا - كما ان هذا العجز الذي سد في وجه الابن سبيل تدبر معاشه وقوت يومه قد زاد ، من الجهسة الثانية ، من تحسره على الاب بصفته حاميا من هموم الحياة . ثم ان هذا العجز ، بوصفه طاعة متأخرة ، تعبیر عن تبيكيت الضمير وقصاص ذاتي بالغ النجح .

بالنظر الى تعذر اخضاع كرم . هايتزمن ، المتوفى سنة ١٧٠٠ ، لمثل هذا التحليل ، فلا مناص لنا من الاقتصار على تسليط الضوء على خصوصيات قصة مرضه القميئة بان تزودنا بتوجيهات بصدد المطلقات النمطية لموقف عدائي حيال الاب . وهذه الخصوصيات ليست بالكثيرة عددا ، كما انها ليست ملفتة كثيرا للنظر ، ولكنها

عظيمة الفائدة .

بادى ذي بدء دور العدد ٩ . فالعهد مع الشيطان معقود لتسع سنوات . ورواية خوري بوتنبرون الجديرة بالتصديق بلا جدال تعض عن ذلك بوضوح : Pro Novem Annis Syngraphen Scriptam Tradidit (٢٩) . ورسالة التوضيحية هذه . المؤرخة في ١ أيلول ١٦٧٧ ، تدلنا ايضا على ان الاجل سينقضي في غضون بضعة ايام : Quorum Et Finis 24 Mensis Hujus Futurus Appropinquat (٣٠) . وعلى هذا يكون العهد قد وقع في ٢٤ ايلول ١٦٦٨ (٣١) . ويرد ذكر العدد تسعة في هذه الرسالة مرة اخرى ايضا : Nonies - تسع مرات - اي ان الرسام قاوم تسع مرات كما يزعم تجارب الشيطان قبل ان يسقط . وهذا التفصيل لن يرد له ذكر في الروايات اللاحقة . وقد جاء ايضا في شهادة رئيس الدين Post Annos Novem (٣٢) . ويرد التاسع في نبذته Ad Novem Annos (٣٣) ، مما يدل على ان هذا العدد لم يعتبر مما لا يعتد به .

ان العدد تسعة مألوف لدينا في الاستيهامات العصابية . فهو عدد شهور الحبل ، وهو يوجه انتباهنا على الدوام ، حال ظهوره ، الى تخييل يتعلق بالحمل . صحيح ان الكلام يدور ، بالنسبة الى رسامنا ، عن تسعة اعوام لا عن تسعة شهور ؛ وقد يقال ايضا ان

٢٩ - باللاتينية في النص : «وسمه صكا مكتوبة اجله تسع سنوات» . -م-

٣٠ - باللاتينية في النص : «سينتهي الاجل في ٢٤ من الشهر الجاري» .

- م -

٣١ - سنهتهم فيما بعد بالتناقض المتمثل في ان العهدين يميلان تاريخا واحدا هو سنة ١٦٦٩ . -م-

٣٢ - باللاتينية في النص : «بعد تسع سنوات» . -م-

٣٣ - باللاتينية في النص : «لتسع سنوات» . -م-

العدد تسعة هو بحد ذاته عدد ذو مغزى ودلالة . ولكن ما يدربنا ان العدد تسعة ، بوجه عام ، لا يدين نقسط كبير من حظوته لدوره في الحمل ؟ وليس لتحويل الشهور التسعة الى سنوات تسع ان يضلنا عن سواء السبيل . فتنح نعرف من الحلم كيف ان «نشاطنا النفسي اللاشعوري» يتصرف على هواه بالاعداد . فان صادفنا في حلم من الاجلام العدد خمسة ، على سبيل المثال ، فلا بد ان نرجعه في كل مرة الى عدد «خمس» له اهميته في حياة اليقظة ؛ فالمقصود في الواقع خمس سنوات كفارق فسي السن ، او شركة من خمسة اشخاص ، لكن هذه الخمسات تتبدى في الحلم في شكل خمس ورفات تقديية او خمس ثمار . اذن فالعدد يبقى هو هو ، لكن ما يدل عليه هو الذي يتغير تبعاً لحاجات التكثيف والنقل في الحلم . وتسع سنوات في الحلم يمكن بسهولة ان تقابل تسعة شهور في الواقع . ويتصرف عمل الحلم بأرقام حياة اليقظة بطريقة اخرى ايضا ، اذ يضرب صفحا ، وبلامبالاة مطلقة ، عن الاصفار ، ولا يعتبرها اعدادا . وعلى هذا فـ ١٠ خمسة دولارات في الحلم يمكن ان تمثل خمسين دولارا او خمسمئة او خمسة آلاف دولار في الواقع .

وثمة نقطة تفصيلية اخرى في علاقة الرسام بالشيطان تردنا بدورنا الى الجنسية Sexualité . فقد رأى الشيطان لأول مرة ، كما اسلفت الاشارة ، في صورة بورجوازي محترم . لكن سرعان ما تبدى له الشيطان ، في المرة الثانية ، عازيا ، شائسه الشكل ، وله نديا امرأة . وفي كل ظهور من ظهوراته التالية سيكون له زوج او اكثر من الانداء . وفي واحد من هذه الظهورات فقط سيحمل الشيطان ، علاوة على الانداء ، قضيبا ضخما له نهاية ثعبانية . وهذا الالاحاح على تمييز الجنس المؤنث بأنساء جسمية وتمتدية (لا اشارة هناك علسى الاطلاق الى الاعضاء التناسلية المؤنثة) قد يبدو متناقضا تناقضا صارخا مع فرضيتنا

القائلة بأن الشيطان هو لرسامنا بديل عن الاب . والحق ان مثل هذا التمثيل للشيطان هو بحد ذاته غريب ومخالف للمألوف . صحيح انه حينما يندو «ابليس» مفهوما من مفاهيم النوع ، وانه حين يظهر بالتالي عدد كبير من الابالسة ، فلا عجب ان وجدنا بعض هذه الابالسة وقد صورت في صورة اناث ؛ لكن بخيل الي ان «ابليس» ، بشخصيته البارزة والقوية ويكونه سيد الجحيم وعدو الله ، لا يمثل ابدا الا ذكرا ، بل اكثر من ذكر ، بقرون وذنوب وقضيب ثعباني كبير .

بيد انه باستطاعتنا ، بالاستناد الى تينك القرينتين البسيطتين ، ان نحزر ما العامل النمطي الذي يشرط الجانب السلبي مسن علاقات الرسام بآبيه . فما يصارع ضده انما هو الموقف المؤنث ازاء هذا الاب ، وهو موقف يدرك نقطة اوجه في تخيل انجاب طفل منه (تسع سنوات) . وغالبا ما لتقي في تحاليلنا هذه المقاومة التي تتخذ اشكالا مثيرة للاستغراب في التحويل **Transfert** وتنصب في وجهنا عقبات لا يستهان بها . وهاهوذا رسامنا وقد نشط لديه من جديد ، تحت تأثير حداده على ابيه الفقيد وحينه المتعاطف اليه ، تخيل الحمل الذي كان قد كبته منذ زمن بعيد ، فما عاد امامه من وسيلة للذود عن نفسه ازاء هجمة هذا التخيل سوى العصاب والانتقاص من قدر الاب .

لكن لماذا يحمل هذا الاب المحطوط الى دور ابليس صفات المرأة الجسمانية ؟ ان هذه السمة تبدو للوهلة الاولى عسيرة التأويل ، لكن سرعان ما يحضر امامنا تفسيران يزاحم واحدهما الآخر ، وان كانا لا يتنافيان . فالوقوف المؤنث من الاب ضرب عليه نطاق من الكبت حالما ادرك الصبي الصغير ان لمنافسة المرأة على حب الاب شرطا ، وهو التخلي عن عضو ذكوره ، اي الخشاء . وعلى هذا يكون نبد الموقف المؤنث نتيجة الصراع ضد الخشاء ،

وهو يجد قياسيا اقوى تعبير له في التخيل المعاكس : خشاء الاب نفسه وتحويله الى امرأة . وعلى هذا الاساس تكون انداء ابليس بمثابة إسقاط لانوثة الابن على البديل الابوي . اما التفسير الثاني لهذه الصفة الجسمانية من سمات ابليس فمطلقة حتى لا ندأى ؛ وبوجهه يكون هذا الشكل فريسة على ان الحب الطفلي للام قد حوّل الى الاب وانه ينطوي بالثاني على تثبيت اموي سابق قوي ومسؤول الى حد ما عن العداء ازاء الاب . وما الانداء التنامية الا علامة ايجابية على جنس الام . وهذا في زمن لا يعرف فيه الطفل بعد السمة السلبية للمرأة . اي غياب القضيبي (٢٤) .

ان كان الثغور من التبول بالخشاء قد جعل من المتعذر على رسامنا ان يتحجر من حينه الى الاب ، فيسير علينا في هذه الحال ان نفهم ان يكون قد قصد صورة الام طلبا للوعن والخلاص . ولهذا يصرح ان والدته الله القديسة الماريازية هي وحدها القادرة على تخليصه من العهد الذي تعهد به لابليس ، وفي يوم ميلاد العذراء (٨ ايلول) يغور بالفعل بالخلاص . ولئن بقيض لنا ابدا بطبيعة الحال ان نعرف ان لم يكن اليوم الذي عقد فيه العهد ، ٢٤ ايلول ، يوما له مدلوله القدسي الخاص هو ايضا .

ولعل اكثر ما يقابن بالثغور وعدم التصديق من الراشد السوي في افتراضات التحاليل النفسي عن حياة الطفل النفسية هو الموقف المؤنث للنفس الصغير من الاب ، وتخيل الحمل الذي يترتب عليه . وان صار في مقدورنا ان نتكلم عن هذا الموقف بلا مراعاة وبلا حاجة الى طلب مسوغات له الا منذ ان نشر رئيس المحكمة العليا في اقليم ساكس . دانيل بول شريبر

٢٤ - دار . مع ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي ، المؤلفات الكاملة ،  
المجلد ٤ .



Schreber ، قصة مرضه الذهاني وشفاؤه شبه النام (٢٥) .  
وقد اتاح لنا نشر هذا الكتاب الثمين الاطلاع على ما يلي : فقد  
ساور السيد رئيس المحكمة العليا ، وهو في حوالي الخمسين من  
العمر ، يقين مطلق بأن الله - المتسم بالتسمت السهلة التعرف  
لواند الرئيس - الطبيب المحترم الدكتور شريبير - قد أبرم قراره  
بأن يخصيه وبأن يعامله كإمرأة وبأن يستولده بشرا جديدا مسن  
طينة آل شريبير (وكان هو نفسه بلا اولاد من زواجه) . وتحت وطأة  
الصراع الذي خاض غماره ضد نية الله تلك ، التي بدت له ظالمة  
مجحفة بقدر ما هي «معاكسة لنظام الكون» ، ستط مريضا ، وظهرت  
عليه جميع أعراض الذهان الهذاني Paranoia الذي ما لبث  
ان خفت حدته مع مر السنين حتى لم يبق منه سوى رسايسة  
طيفة . ويبدى ان كاتب قصة مرضه ما كان ، عسى نياحته ،  
ليشتبه بأنه يكشف فيها عن عامل نمطي من عوامل نشوء الامراض  
النفسية .

هذا التفور من الخضاء او من الموقف المؤث سلخه الفريد  
آدار (٢٦) من سياقه العضوي وأرجعه ، من خلال علاقات سطحية  
او كاذبة ، الى ارادة القوة ، وسادر على انه ميل مستقل عمده  
باسم «الاحتجاج الذكوري» . لكن بما ان العصاب لا يمكن ان  
ينشأ الا عن نزاع بين ميلين ، فمن المسوغ لنا ان نرى علة «جميع»

٣٥ - د.ب. شريبير : مذكرات مريض عصبي ، لايبزغ ١٩٠٧ . فان مع  
تجليلي لحالة شريبير : ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لصابنة  
بالذهان الهذاني . في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي . ١٩٣٢ . الاسدار ١ .  
٣٦ - الفريد آدار : طبيب وعالم نفس نمسوي ١٨٧٠ - ١٩٣٧ . فان احد  
اكبر الشقائين عرفتهما حركة التحليل النفسي . ووضعت مدعب علم النفس  
الفردى والطبعي . -٣-

الأعصبة في الاحتجاج الذكوري كما في الموقف المؤث الذي هو  
موضوع هذا الاحتجاج . ولا مرأى في ان للاحتجاج الذكوري دورا  
مطردا في تكوين الطبع . وهو دور بالغ الأهمية في بعض  
الانماط ، كما لا مرأى في ان الاحتجاج المشار اليه ينتصب امامنا .  
في تحليل المعصوبين من الرجال ، في صورة مقاومة عنيفة .  
ويقيم التحليل النفسي الاحتجاج الذكوري بحق قيمته بدالة  
عقدة الخضاء ، من دون ان يكون في وسعه ان يثبت كلية قدرته  
او كلية حضوره في الإعصبة . ومن بين جميع حالات الاحتجاج  
الذكوري المتظاهر في جملة من ردود الأفعال والسماط الطبيعية  
البيئية ، كانت أبرز الحالات التي استدعت تدخل حالة عصاب  
وسواسي امكن فيها للنزاع غير المحلول بين الموقف المذكور والموقف  
المؤث (خوف الخضاء ولذة الخضاء) ان يعبر عن نفسه بوضوح  
وجلاء . زد على ذلك ان المعالج كانت تتنابه استيهامات مازوخية  
تتجه جميعها باتجاه الرغبة في القبول بالخضاء ، ولقد وصل به  
الامر ، تحت دفع هذه الاستيهامات ، الى طلب اشباع مادي لها  
بطريقة شاذة . وكانت حالته في جملتها تقوم - شأنها اصلا شأن  
نظرية آدار - على اساس من الكبت ونفي التثبيات العبية العائدة  
الى الطفولة الاولى .

لقد وجد الرئيس شريبير سبيله الى الشفاء حين قر عزمه على  
العزوف عن مقاومة الخضاء وعلى الارتضاء بالدور المؤث الذي  
قَبَّضه الله له . فساوره عندئذ شعور بالهدوء والصفو والطمأنينة ،  
واستطاع ان يطلب وان يحقق بنفسه خروجه من المصح العقلي ،  
وان يحيا حياة سوية ، وذلك باستثناء النقطة اليتيمة التالية :  
وهي تكريسه بضع ساعات من كل يوم لشؤون أوثنته . وقد  
رسخ لديه الاقتناع بأن التقدم الوئيد لهذه الأخيرة سيدرك لا محالة  
الهدف الذي عيَّنه له الرب .

## العهدان

التي لا تتفق حولها الروايات . والحال ان دراسة هذه التناقضات ستفودنا على نحو لامتوقع الى تفهم أعمق لحالة مريضنا .

ان الامر ، بموجب رسالة التوصية الصادرة عن خسوري بوتنهرون ، ليو بمنتهى البساطة والوضوح . فهي لا تذكر سوى عيد واحد كتبه الرسام بالدم قبل تسع سنوات وكان يفترض فيه ان يحين اجله في غضون بضعة ايام . في ٢٤ ايلول ؛ وعليه فان هذا العيد قد حزر في ٢٤ ايلول ١٦٦٨ ؛ لكن هذا التاريخ ، الذي نستطيع استنتاجه بيقين ، لم يرد له ، مع الاسف ، ذكر صريح .

وبالمقابل فان الامر يبدو أشد تعقيدا بموجب شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس المؤرخة . كما نعلم ، بعد بضعة ايام (في ١٢ ايلول ١٦٧٧) . ولا بد لنا من التسليم ، بناء عليها ، بان الرسام قد ادلى في غضون ذلك بمعلومات اكثر تفصيلا . فقد جاء في الشهادة المذكورة ان الرسام وقع عهدين ، الاول في ١٦٦٨ (وذلك كما هو مفروض بالفعل بموجب رسالة التوصية) ، وقد حزر بالبحر الاسود ، والثاني في السنة التالية ١٦٦٩ (٢٧) ، وقد حزر بالدم . والعهد الذي اعيد اليه يوم ميلاد العذراء كان العهد الذي كتب بالدم ، اي العهد الثاني المقود سنة ١٦٦٩ . وهذا لا يستتبان من شهادة رئيس الدير ، اذ كل ما جاء فيها يصدد ذلك هو فقط ما يلي : Schedam Redderet (٢٨) و Schedam Sibi Porrngentem Conspexisset (٢٩) ، وكان الامر لا يعدو ان يكون امر سك واحد . ولكن ذلك يستبان من شمة القصة ، وكذلك من عنوان التذكار الملون الذي تشاهد فيه بوضوح الكتابة

تنطوي قصة رسامنا على تفصيل فريد مثير للانتباه . يتمثل في تصريحه بأنه عقد مع ابليس عهدين مختلفين . وقد نص العهد الاول . المكتوب بالحبر الاممود . على ما يلي :

«انا الموقع ادناه . كر . ه . . . انذر نفسي لبيدا السيد وكانني ابنه من سلبه لمدة تسع سنوات» .  
اما نص العهد الثاني . المحزر بالدم . فكما يلي :  
«كر . ه . . . اعهد بنفسى كتابة اني هذا الشيطان . واعداء بان اكون ابنه من سلبه وبان اكون بعد تسع سنوات ملكا له جسدا وروحا» .

والنسختان الاصيلتان لهذين العهدين كانتا موجودتين بطبيعة الحال ، لدى تحرير التذكار ، في محفوظات دير ماربازل ؛ وكانتا لكلاهما تحملان تاريخا واحدا هو سنة ١٦٦٩ .  
لقد اتيت بذكر هذين العهدين تكرارا ، وسوف اوليها الان مزيدا من الاهتمام ، وان يكن خطر المبالغة في التدقيق فسي الاتفاصيل يبدو هنا كبيرا فعلا .

انه لامر غريب ان يندر شخص نفسه لابليس مرتين . وعلى نحو يحل معه العهد الثاني محل الاول من دون ان ينسخه ويبطل مفعوله . ولعل من الف قصص ابليس واعتادها ، لن تأخذها الدهشة التي اخذتنا . ولكني لا املك ، من جانبي . الا ان ارى في ذلك سمة تفرد بها الحالة التي هي موضوع بحثنا . ولقد ساورني الشك حين لاحظت ان هذه النقطة هي بالتحديد النقطة

كليهما بسنة واحدة هي سنة ١٦٦٩ ، مع ان واحدهما معزرو  
 بعبارة صريحة الى «السنة التالية» (٤١) ؟  
 يبدو ان الناسخ احس بهذه الاشكالات ، فحاول تعديلها . ففي  
 مدخله بتفيد بيان رئيس الدير ، لكنه يعدله في نقطة واحدة .  
 فهو يقول ان الرسام عقد في سنة ١٦٦٩ مع الشيطان عهدا كتب  
 بالحجر . وبعد ذلك Deinde Vero ، بالدم . وبضرب صفحا  
 عن المعطيات الشكلية للروايتين - بموجب هذه المعطيات يستحق  
 اجل احد العهدين في سنة ١٦٧٨ - كما يفض النظر عن الملاحظة  
 التي وردت في شهادة رئيس الدير من ان تاريخ السنة قد تبدل  
 بين توقيع كلا العهدين ، كيلا يخالف التاريخ الذي يحمله السكان  
 اللذان اعادهما ابليس .

فسي شهادة رئيس الدير ، وبعبارة : **في**  
**السنة التالية ١٦٦٩** ، وردت بين قوسين هذه الفقرة :  
 Sumitur Hic Alter Annus Pro Nondum Completo Ut  
 Saepe In Loquendo Fieri Solet, Nam Eundum Annum Indicant  
 Syngraphae Quarum Atramento Scripta Ante Prae-  
 sentem Attestationem Nondum Habita Fuit .

وهذه الفقرة تدليس لا مربة فيه من جانب الناسخ ، لان رئيس  
 الدير ، الذي لم يقع بصره الا على صك واحد ، لا يستطيع ان  
 يشهد على أنهما يحملان كلاهما تاريخا واحدا . ويبدو على كل  
 حال ان الغرض من استعمال القوسين هو الاشارة الى ان ما بينهما

الحمرء على الصك الذي يمسك به التنين الشيطاني . وكما تقدم  
 بنا القول سارت الامور لاحقا على الوجه التالي : فقد رجع الرسام  
 في ايار ١٦٧٨ الى ماريازل ، بعد ان تعرض في فيينا لهجمات  
 جديدة من قبل ابليس ، وقدّم التماسه الذي طلب فيه ان تعاد  
 اليه ، بشفاعة جديدة من العذراء القديسة ، الوثيقة الاوالمسى  
 المكتوبة بالحجر . والطريقة التي تم بها ذلك لم توصف هذه المرة  
 بانتوسع الذي وصفت به في المرة الاولى . فقد ورد القول فقط  
 qua iuxta votum Reddita (٤٠) ، وفي موضع آخر يروي  
 الناسخ ان هذا العهد عينه «المدعوك والمزق الى اربع» رمى به  
 الشيطان الى الرسام ، في ٩ ايار ١٦٧٨ ، في حوالي الساعة  
 التاسعة مساء .

بيد ان العهدين يحملان كلاهما تاريخا واحدا : سنة ١٦٦٩ .  
 فلما ان هذا الاختلاف لا يعني شيئا على الاطلاق ، ولما ان  
 يحملنا على التفكير على النحو التالي :

اذا اعتبرنا ان بيان رئيس الدير هو الاكمل ، نهضت امامنا  
 إشكالات شتى . فحين اعترف كر . ه . . . لخوري بوتنجران بأنه  
 فريسة للاحقاق ابليس وان اجل الاستحقاق بات وشيكا ، مسا  
 كان من الممكن ان يذهب به الفكر (في سنة ١٦٧٧) الا الى العهد  
 المعقود سنة ١٦٦٨ ، اي العهد الاول ، المحرر بالاسود (وهو العهد  
 الذي لا تشير رسالة التوصية الى صك سواه، وان نعتته بأنه مكتوب  
 بالدم) . غير انه لم يعد له من هم بعد بضعة ايام ، في ماريازل ،  
 الا ان يحصل من جديد على الثاني ، المكتوب بالدم ، والذي لم  
 يحرم بعد اجل استحقاقه (١٦٦٩-١٦٧٧) ، من دون ان يبالي باستحقاق  
 اجل الاول . وهذا العهد الاول لا يعود الى المطالبة به الا في سنة  
 ١٦٧٨ ، اي في السنة العاشرة من عقده . ثم ما علة تأريخ العهدين

٤١ - باللاتينية في النص : Anno Subsequenti - م-  
 ٤٢ - باللاتينية في النص : «عده السنة الاخرى تعتبر غير مكتملة بعد كما  
 درجت العادة على القول ، لان الصكين ، اللذين لم يحررا بالحجر قبل عهده  
 الشهادة ، يشيران الى سنة واحدة» . م-

٤٠ - «فأعيد اليه حسب طلبه» . م-

إضافة من خارج الشهادة . وهذه الإضافة المتضمنة بين قوسين هي بمثابة محاولة أخرى من جانب الناسخ لتدليل التناقضات المشار إليها . فلا شك في أن هذا الأخير كان معتد بأن العهد الأول قد عقد فعلا في سنة ١٦٦٨ . ولكن بما أن السنة كانت قد تقدمت كثيرا بشهر الأول . فلا بد أن الرسام قد سبق تاريخه بسنة واحدة ؛ وهكذا بات للعقدين كليهما تاريخ واحد . وكونه قد أباح لنفسه اللجوء الى ما درجت العادة على اللجوء اليه في كثير من الأحيان في التقارير الشفهية يجعل كل هذه المحاولة التفسيرية باطلة من الأساس . وهي لا تعدو بالأصل أن تكون ضربا مسن التملص السريع .

لست ادري ان كان عرضي هذا قد ترك اثرا في القارئ وحمله على الاهتمام بهذه التفاصيل . ولقد كان يخيل الي انه من المستحيل إعادة وضع الامور في تصابها على نحو لا ريب فيه . لكنني توصلت ، وأنا ادرس هذه القضية المختلطة . الى افتراض من شأنه ان يهدينا بصورة طبيعية تماما الى الكيفية التي حدثت بها الامور ، حتى وان تكن الشهادات المكتوبة لا تتفق البتة وإياها . فانا اعتقد انه حين قدم الرسام الى ماريازل للمرة الاولى لم يتكلم الا عن عهد واحد ؛ حرّر بالدم بحسب ما كان متعبا ، وكان مفروضا به ان يستحق أجله قريبا ؛ فهو بالذات قد عقد فسي ليلول ١٦٦٨ ، تماما كما جاء القول في رسالة التوصية الصادرة عن الخوري . وفي ماريازل أبرز أيضا عهد الدم هذا بوصفه العهد الذي اعاده انييس بارغام من الام القديسة . ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك . فسرعان ما غرد الرسام المحج وقصد فيينسا حيث شعر بالفعل انه قد فرّج عنه الى منتصف تشرين الاول . لكن عندئذ عاودته الآلام والرؤى التي عاها في مساعي الشيطان .

يشف ؛ الا يلقى استقبالا حسنا في ماريازل . وتخلصا من هذه الورطة تخيل عيدا ابتدائيا ؛ سابقا . كتب بالحبر . وذلك كيما يبدو معقولا ان هذا العيد قد طغى عليه في الهمية عهد آخر ؛ لاحق . حرر بالدم . ولدى عودته الى ماريازل استرد هذا العهد الاول المزعوم . وعندئذ تحرر حقا من الشيطان ؛ لكنه فعل في الوقت نفسه شيئا آخر .

فالشئ المؤكد انه في الناء هذه الاقامة الثانية في ماريازل انجز الرسوم ؛ فصفحة العنوان ؛ المرسومة دفعة واحدة ؛ تشتمل على تمثيل مشهدي العيد . ومن الممكن ان يكون الرسام قد عانى حرجا شديدا في محاولته التوفيق بين تصريحاته الجديدة والسابقة . ولقد كان من سوء حظه انه ما وسعه ان يتخيل سوى عهد سابق لا عهد لاحق . فبذلك ما عاد يملك رسعا ان يحول دون حصول الإشكال المرح : استرداده في وقت مبكر اكثر مما ينبغي احد العيدين . العهد المكتوب بحروف من دم (في السنة الثامنة) . واسترداده الثاني . المحرر بحروف سود . في وقت متأخر اكثر مما ينبغي (في السنة العاشرة) . وثمة قرينة تميم عن تحريره على دفتين ؛ فقد اخط في تاريخ العيدين وجعل تاريخ العهد الاول في سنة ١٦٦٩ ايضا . وبهذا الخط مدلول صراحة غير مقصودة ؛ وهو يتضح لنا ان نحزرا ان العهد السابق المزعوم جعل استحقاقه لاجل العيد . ولم يكن امام الناسخ مناس . وهو الذي لم يطع على الموضوع الا في سنة ١٧١٤ . بل ربما في سنة ١٧٢٩ . من ان يبذل قصاراه لواراة هذه التناقضات بقدر الامكان ؛ على ما انا من الهمية . وبما ان العيدين اللذين كانا امامه كانا يحملان كلاهما تاريخ ١٦٦٩ . فقد حاول التملص من الورطة عن طريق محاولة التفسير المتباينة التي ادرجها في شهادته رئيس الدين .

ويسير على القارئ ان يدرك اين وجه الضعف في اعادتنا

المغرية هذه لماجريات القصة . فذكر العهدين : اللذين واحدهما بالاسود وثانيهما بالدم الاحمر ، قد ورد في شهادة رئيس الدير فرانسيسكوس . ومن ثم كان لي ان اختار بين واحد بين اثنين: إما الافتراض بان الناسخ قد اجري تعديلا ما في هذه الشهادة . وهذا بالارتباط الوثيق مع مسعاه التديليسي ، وإما الاعتراف بانني لست اهلا للاهتمام الى خيط الحقيقة في هذه الليلة (٤٢) .

٤٣ - يدخل الي ان الناسخ وجد نفسه محصورا بين نقطتين ثابتتين . فمن جهة اولى وجد رسالة النوسية الصادرة عن الخوري وسيادة رئيس الدير تتصل كلتاها على ان العهد (على كل حال الاول) قد كتب في سنة ١٦٦٨ ؛ ومن الجهة الثانية كان العهدان ، المحفوظان في محفوظات الدير . حقلنا كلامنا بارج ١٦٦٩ . وبما انه كان امام عينيه عهدان ، فقد داخله اعتقاد راسخ بان ثمة عهدين قد جرى تحريرهما . ولئن لم يرد ذكر في شهادة رئيس الدير . انما افترض اننا العهد واحد . فقد وجد الناسخ نفسه مرغما على ان يفهم عن مسنده الشهادة ذكر العهد الثاني ، وتطمنا من التناقض افترض ان هذا الاخير قد سبق تاريخه . والعمير الذي احده في النص ياتي مياضرة بعد الاضافة التي ما كان لاحد سواه ان يفسه على النص . وثقلنا وجد نفسه مكرها على ان يجمع بينه وبين الناس وبين التعديل الذي اجراه فيه . لان الرسام كان قد كتب بفسرغ العبارة في الشرح المرافق للصورة ، والذي احق به تلف شديد :

Sequenti Vero Anno 1669

بعد سنة واحدة ...

تعرض لتهديد شديد ...

الصورة رقم ٢ ، واضطر ...

اني التوقيع بالدم ...

والخط الذي ارتكبه الرسام حين أعدَّ العهدان ، والذي ارتعنى على القيام بهذه المحاولات النفسية ، لا يبدو لي اقل اشارة الاضمام من عقديه نفسيهما.

ولا ريب في ان كل هذه المناقشة قد بدت للقارئ منذ زمن غير يسير فائضة عن الحاجة ، مثلما بدت له التفاصيل المدروسة واهنة الفائدة . لكن الامر يتلبس اهمية جديدة عندما نتابعه في اتجاه معين .

قلت توأ ، بصدد الرسام ، انه تخيل ، وقد باعته مسمار مرضه بما يكره ، عهدا سابقا (العهد المكتوب بالبحر) ليتمكن من تبرير موقفه لدى رهبان ماريازل . والحال اني اكتب برسم قراء لا يؤمنون ببليس ، وان كانوا يؤمنون بالتحليل النفسي ، ومن ثم فانهم قد ينكرون على سخافة توجيه مثل هذا اللوم الى ذلك الرسام المسكين الذي تمنعه رسالة التوضيعة اصلا بـ «الرجس البائس» . فالعهد المكتوب بالدم كان ولا بد خياليا ، مثله مثل العهد السابق المزعوم المكتوب بالبحر . وواقع الحال انه لم يظهر له اي شيطان ، وكل العهد مع ابليس لم يكن له من وجود الا في مخيلته . وانا اوافق على ذلك ، وليس لاحد ان ينكر على ذلك المسكين الحق في تكملة استيهامه البدائي بأخر لاحق ، متى ما بدا ان الظروف المستجدة تستوجب ذلك .

لكن هنا ايضا لا بد لنا ان نرى الى ابعد . فالعهدان ليسا بالفعل من استيهام نظير رؤى الشيطان ؛ بسبل كانا وثيقتين محفوظتين ، بحسب تأكيد الناسخ ، وبحسب شهادة رئيس الدير كيليان لاحقا ، في محفوظات ماريازل ، وكان يوسع جميع الناس رؤيتهما ولمسهما . وواجهنا اذن هنا إحراج . فيما ان تسلّم بان الرسام اختلق بنفسه في الوقت المرام ، وعند احتياجه اليهما ، الصكين اللذين اعيدا اليه على ما قيل لنا بشفاقة ربانية، وإما ان نعتبر السادة رهبان ماريازل وسنان لامير غير اهمل للتصديق رغم كل التوكيدات الرسمية وشهادات الشهود المختومة بالأختام ، الخ . واني لاقرب بانه ما كان لي الا بمشقة وعسر ان اشتميه في الرهبان . صحيح اني اميل الى التسليم بان الناسخ اجري بعض التزوير في شهادة رئيس الدير الاول حرصا

منه على توافق النصوص ، لكن هذا «العمل الانشائي الثانوي» لا يتعدى حدود الفعّال المسابغة للمؤرخين المحدثين والعلمانيين ، وقد فُعل على كل حال عن خلوص نية . ولقد استأهل الرهبان في ظروف اخرى حقاً مبرراً في ان نمضهم نقتنا . وقد اسلفت القول انه ما كان ثمة ما يمنعه من حذف الروايات المتعلقة بالشفاء غير الكامل وبمواصله الشيطان تجاربه . كذلك فسان وصف مشيد التعزيم في المزار ، الذي كان من الممكن ان نشخوف من السطط فيه ، مروي ببساطة واعتدال وبظاهر من الحق . لذا لا يبقى امامنا الا ان توجه اصعب الاهتمام الى الرسام . فقد كان هذا الاخير يجهل معه ولا بد العهد المكتوب بحروف حمر حين قصد المزار لأداء فعل توبته فيه . وقد ابرزه حين ارتد نحو اليهود من الرهبان بعد لقائه بإبليس . وما من ضرورة تقضي ايضاً بأن يكون هذا الصك هو عينه الذي جرى الاحتفاظ به لاحقاً في المحفوظات؛ وبحسب اعادة بنائنا للقصة فان هذا الصك الاول كان يمكن ان يكون حاملاً لتاريخ ١٦٦٨ (قبل تسع سنوات من مشهد التعزيم).

- ٥ -

## العصاب اللاحق

لكن كل ما تقدم لن يعدو غي هذه الحال ان يكون ضرباً من الغش ، لا من العصاب ، كما لن يعدو الرسام ان يكون مزوراً ومظاهراً ، لا ممسوساً ! بيد ان الحدود بين العصاب والتظاهر، كما هو معلوم ، غامضة . وانا لا اجد اي صعوبة ايضاً في التسليم بأن الرسام كتب وحمل ذلك الصك ، والوثائق التي تلته ، وهو في حالة خاصة شبيهة بحالة رؤاه . وبالفعل ، ما كان له ان يسلك

غير هذا المسلك اذا شاء ان يجعل لتخليسه العهد مع الشيطان ثم الخلاص منه اساساً من الواقع .

وبالمقابل ، فان اليوميات التي حررها في فيينا ، والتي سلمها للرهبان عند نزوله للمرة الثانية في ماريازل ، تحمل طابع الصدق والحقيقة . وتتيح لنا هذه الوثيقة ان نلقي نظرة عميقة ونافذة على حافز العصاب ، او بتعبير ادق على تثيره واستغلاله . تمتد التعليقات من زمن التعزيم الذي حقق هدفه الى يوم ١٥ كانون الثاني من السنة التالية ١٦٧٨ . وحتى الحادي عشر من تشرين الاول عاش الرسام بأحسن حال في فيينا ، حيث اقام لدى اخت متزوجة ، ولكن منذئذ عاودته ثانية حالات مرضية جديدة ، واكتبها رؤى وتشنجات وإغماءات واحساسات مؤلمة ، مما اوجب عودته الى ماريازل في ايار ١٦٧٨ .

ينقسم هذا السرد الجديد لآلامه الى ثلاث مراحل . فقد نجلت له التجربة اولاً في شكل فارس حسن اللبس حاول اقناعه بأن يرمي الصك الذي يشهد على قبوله في رهبانية اخوة سان روزير . وازاء المقاومة التي ابداها عاود الشبح نفسه ظهوره في اليوم التالي ، لكن هذه المرة في قاعة رائعة الزخرفة تفصص بالراقصين من النبلاء وجميلات النساء . وعرض عليه نفس الفارس الذي كان قد حاول تجربته مقترحات ذات صلوة بالرسم (٤٤) ووعدته بالمقابل بمبلغ كبير من المال . وبعد ان افلح ، بتلاوته الصلوات ، في تبديد هذه الرؤيا ، تجددت بعد بضعة ايام في شكل أشد تأثيراً ايضاً . فقد بعث اليه الفارس هذه المرة بواحدة من اجمل النساء ممن كنّ جالسات الى مائدة الولىمة ، لكي تصطحبه معها الى معشر الطبقة الراقية ، وكان عليه ان يجاهد نفسه حتى يتقني شر اغرائها . لكن الرؤيا التالية كانت أشد وقعا

٤٤ - لم اتمكن من فهم هذا المقطع .

في النفس ايضا ، وكان المشهد في قاعة اعظم فخامة «ينتصب فيها عرش من الذهب» . وكان يصطف حول العرش فرسان ينتظرون قدوم ملكهم . واقترب الشخص عينه الذي كان اولاه عنابته في اكثر المرات السابقة ودعاه الى ارتقاء العرش لانهم «يريدون ان يتخذوه ملكا عليهم وان يجثوا قدره الى ابد الابدن» . وبهذا التوسيع للاستيهام ينتهي هذا الطور الاول والعظيم الشغافية من قصة التجربة .

وكان لا بد ان يعقب ذلك رد فعل . فاذا بكفة الزهد والورع ترجع . ففي العشرين من تشرين الاول ظهرت للرسام هالة عظيمة ، وخرج منها صوت زعم انه صوت المسيح ، وحثه على العروف عن العالم وعلى نذر نفسه لخدمة الرب في الصحراء لتست سنوات . وقد عانى على ما هو باد للعيان من هذه الرؤى القدسية اكثر بكثير مما عانى من الرؤى الشيطانية التي سبقتها . ولم يقف من هذه التوبة الا بعد مرور ساعتين ونصف ساعة . وفي الرؤيا التالية ابدى الشخص القديس ، المحاط بهالة ، قدرا اقل من الرفق والحسنى . وتوعد ارسام وهدده لانه لم يقبل العرش الالهي ، واقتاده الى الجحيم ليبت الخوف في قلبه بمرأى مال الملعونين . والظاهر ان التهديد لم يجد قتيلا ، لان ظهرات الشخص المشع ، والمفروض فيه انه هو المسيح ، تكررت وتسببت له في غيوبات وانخفاقات تدوم واحدها عدة ساعات . ونسي اعظم هذه الانخفاقات اقتاد الشخص البهي الطلعة الرسام فسي بادىء الامر الى مدينة يتعاطى الناس في شوارعها جميع افعال الجهالة والاضلالة ، ثم اقتاده بعد ذلك ، وعلى سبيل التضاد ، الى مرج جميل يحيا فيه النساك حياة ورعة ويتلقون شهادات ملموسة على نعمة الله وعنابته الربانية . وتظهر بعد ذلك ، وبدلا من المسيح ، الام القديسة بنفسها لتحت المريض ، باسم العون الذي بذلته له آنفا ، على الانصياع لطلب ابنها الحبيب . و«لما لم

يرم امره كما ينبغي» عاود المسيح ظهوره في اليوم التالي والحف عليه الحافا شديدا ، قارنا الوعد بالوعيد . وفي النهاية رضح ، وعزم على هجران العالم ، وعلى فعل ما هو منتظر منه . ووضع هذا القرار حدا للطور الثاني . ولاحظ الرسام ابتداء من تلك اللحظة انه لم يعد عرضة للرؤى والتجارب .

غير ان هذا القرار لم يكن حازما جدا على ما يظهر ، او انه ارجأ تنفيذه اكثر مما ينبغي ، اذ فيما كان الرسام يصلي ويتهدد في كنيسة سان اتين ، في السادس والعشرين من كانون الاول ، وقع نظره على امرأة صبية مشيقة القد تسير برفقة نبيل جميل اللبس ، فما استطاع ان يرد عنه فكرة انه كان يوسعه ان يكون محل هذا النبيل . وكان هذا الخاطب يستوجب العقاب ، فاذا به ، في مساء اليوم نفسه ، وكان صاعقة قد صعقته : فرأى نفسه محاصرا بألسنة النار وغاب عن الوجود . وبذلت جهود مضيئة لارجاعه الى الوعي ، لكنه ظل يتدحرج فوق ارض الغرقة الى ان تدفق الدم من انفه وفمه ، واحس بأنه يسبح في العرق والاقذار ، وسمع صوتا ينبئه بان هذه الحالة قد حلت به عقابا له على افكاره الباطلة والعاينة . وفي وقت لاحق ساطته الارواح الشريسة بالحيال ، واندرته بأنه سيلقى بوميا نظير هذا العذاب ، الى ان يقر قراره على الانتساب الى رهبانية نسكية . وقد دامت هذه الاحداث الى يوم ١٣ كانون الثاني ، وهو التاريخ الذي تقف عنده اليوميات .

واضح للعيان اذن كيف ان الاستيهامات الاغرائية لسدى رسامنا اليائس تتحول اولا الى استيهامات زهدية ، ثم السى استيهامات عقابية . ونحن نعرف مقدما نهاية قصة عذاباته . فقد قصد في شهر ايار ماريازل حيث اعترف بأنه عقد عهدا سابقا ، محررا بالخير الاسود ، واغرب عن اعتقاده بان هذا العهد هو مصدر العذابات الجديدة التي ينزلها به ابليس . وكان له ما اراد: فقد أعيد اليه العهد وكتب له الشفاء .

وفي اثناء اقامته الثانية هذه في ماربازل رسم الصور  
المسوخة في التذكار ، وفعل في الوقت نفسه شيئا يتمشى  
ومتطلبات الطور الزهدي من يومياته . فبدلا من ان يقصد  
الصحراء ليتسكك ، انتسب الى رهبانية اخوة الرافسة :  
Religiosus Factus Est (٤٥) .

نتيج لنا مطالعة اليوميات ان نفهم جانباً جديداً في كل هذه  
القصة . فشح نذكر ولا ريب ان الرسام نذر نفسه للشيطان لانه  
شق عليه غداة وفاة والده - وقد اخذ منه التبرم كل ماخذ وبات  
عاجزا عن العمل - ان يتدبر امر معاشه . والحال ان هذه العوامل،  
من هبوط وكف عن العمل وحداد على الاب ، مترابطة بعضها  
ببعض بكيفية ما ، بسيطة او معقدة . وامل الشيطان ما طور له  
تكرارا وهو محبو بالانداء الكبيرة الا لانه كان يفترض ببليس ان  
يفدو اياه المرشح . بيد ان هذا الامل لم يتحقق ، وظل الفشل في  
كل شيء حليفه ، وما امكنه ان يعمل كما ينبغي او لعل الحظ لم  
يحالفه ولم يلق عملا يقيه اوده . ورسالة التوصية الصادرة عن  
الخوري تقول عنه : «رجل بائس ليس له من معين» . وعليه ، لم  
يكن الرسام في حال من العوز المعنوي فحسب ، بل كان يعاني  
ايضا العوز المادي . وتلقى في ثنايا قصة رؤاه الاخيرة ملاحظات  
تدل ، مثلها مثل مضمون المشاهد التي يشاهدها ، على انه لم  
يتغير شيء، رغم نجاح التعزيم الاول . نحن اذن امام رجل لا يفلح  
في شيء ، ولهذا السبب لا يحضه احد ثقته . ففي الرؤية الاولى  
يساله الفارس عما سيفعله ، ما دام احد لا يهتم به : «ما دام  
الجميع قد تخلوا عني ، فما بوسعي ان افعله ؟» . والمجموعة  
الاولى من الرؤى في فيينا تتفق تماما مع الاستيهامات الرغبةية

٤٥ - باللاتينية في النص : «صار راهبا» . -م-

لانسان فقير ، جائع الى اللذات والمباهج ، بائس : قاعات عظيمة،  
اطياب من الطعام ، آتية من فضة ، نساء جميلات ؛ وهنا تحديدا  
نلتقي ما كنا افتقدناه حتى الان في العلاقات مع الشيطان .  
فقبلئذ كانت تسيطر على المريض سويداء تحول بينه وبين ايسة  
متعة وتقسره على رفض اشد العروض اغراء . ويبدو ان هذه  
السويداء قد امكن التغلب عليها بعد التعزيم ، فديت الحياة من  
جديد في جميع المطاعم والشبوات الدنيوية .

في واحدة من الرؤى الزهدية يتشكى الشخص الذي يأخذ  
بيده (المسيح) من ان احدا لا يريد ان يصدقه ، مما يمنعه من  
تنفيذ ما يؤمر به . ولسوء الحظ ان الجواب الذي يتلقاه يقضى  
مستغلقا فهمه علينا . «لا احد يريد تصديقي ، لكن ما حدث اعلمه  
حق البلم ، غير انه يتعذر علي انا نفسي الافصاح عنه» . وتضىء  
القصة بعد ذلك بضوء باهر حينما يقناده دليله الالهي الى مقام  
النسك : اذ يصل الى مغارة يقيم فيها شيخ طاعن في السن منذ  
ستين سنة ، ويعلم من الاجوبة التي يتلقاها عن اسئلته ان هذا  
الشيخ تطعمه يوميا ملائكة الرب . ثم يرى بأم عينه ملاكا يحمل  
القوت للشيخ : «ثلاث قصعات من الطعام وخبز وقطعة لحم  
وشراب» . وبعد ان يأكل الناسك حتى الشبع ، يجمع الملاك بقايا  
الطعام ويذهب بها . وسهل علينا ان ندرك ما الاغراءات التي يمكن  
ان تقدمها هذه الرؤى التقوية : فعاقتها المحتملة ان تحمسل  
المريض على اختيار طراز في العيش لا يعاني فيه هموم الماكل .  
وجديرة بالملاحظة ايضا كلمات المسيح في آخر الرؤى . فبعد  
تهديده اياه بأنه اذا لم يمثل فسيقع شيء برغمه . هو وسائر  
الناس ، على الايمان ، ينقل الرسام كلمات المسيح : «ليس لي ان  
اهتم للناس ؛ فحتى لو اضطهدوني او لم اطلق منهم أي عون ،  
فلن يتخلى الله عني» .

لقد كان كرم . هاتين من فنانا بمحبنا الدائمة يكفل كلا .  
له سهلا العزوف عن عالم الجبال هذا . غير انه فعل ذلك ليري



خاتمة المطاف بسبب ما كان فيه من إملاق . انتسب الى رهبانية ، فانتهى بذلك صراعه الداخلي وبؤسه المادي على حد سواء . وتنعكس هذه النهاية في عصابه من حيث ان استعادته الصلح الاول المزعوم تحرره من نوباته ورؤاه . وفي الواقع ، كان لكسلا طوري مرضه الإيليسي معنى واحد . اذ لم يكن له من طلب الا تأمين معاشه ، المرة الاولى بمساعدة ابليس ، وعلى حساب خلاص نفسه . وفي المرة الثانية ، لما تخلى عنه ابليس ولم يكن امامه مناص من العزوف عنه ، بمساعدة الكنيسة وبتضحيتيه بحريته وبمعظم امكانيات المتعة التي تقدمها الحياة . ولعلل كر . هايتزمن كان ببساطة رجلا مسكينا سيء الطالع ، ولعله كان أخرق او غير كفؤ لتدبر امر نفسه ، ينتمي الى ذلك النمط من الناس المعروفين باسم «الرضعاء الدائمين» الذين لا يسعهم ان يخرجوا بأنفسهم من الوضع السعيد الذي كانوا يرتعون به في حضن الأم ، والذين يفضون حياتهم بكاملها وهم يبحثون عمن يطعمهم ويقيتهم . وهكذا نلناه في قصة مرضه هذه ينطلق من الاب يعود ادراجاه ، مروراً بالشيطان ، بدليل الاب ، الى الآباء المقدسين .

قد يبدو هذا العصاب . عند الملاحظة السطحية . وكأنه حيولة من احاييل الشعيذة التي يحفل بها جانب بكامله مسن الفراع الخطير ؛ لكن العادي . في سبيل الحياة . وقد لا يكون كذلك هو واقع الحال على الدوام . ولكنه كثير النواتج على كسل حال . وكثيرا ما يختبر المحللون بالتجربة كم يشق عليهم ان يعالجوا تاجرا «بدأت تظهر عليه منذ بعض الوقت ، بأزغم مما هو عليه من صحة جيدة ، أعراض عصاب ما» . فالكارثة التي يرهص التاجر بانها تتبدده في تجارته يكون من نتائجها الثانوية بناء ذلك العصاب ، مما يتيح للمريض الامكانية لإخفاء همومه العاشية الفعلية خلف ستار أعراضه المرضية . وهذا على كسل حال حل غير مناسب بالمرة ، لان العصاب يمتص قوى كان يمكن

استخدامها على نحو ائفع وأجدي في مواجهة الوضع المحفوف بالمخاطر مواجهة متبصرة .

وفي أحوال أخرى أكثر تواترا بما لا يقاس يكون العصاب اكثر انزالا واستقلالا عن هموم الحياة والبقاء . فالنزاع . الذي عنه ينشأ العصاب . يكون موضوعه إما اهتمامات ليبيدوية خالصة . وأما اهتمامات ليبيدوية مقرونة على نحو وثيق للغاية بهموم الحياة والبقاء . لكن دينامية العصاب في الحالات الثلاث واحدة . فالليبيدو المتراكم ، الذي لا يسمع ان يجد سبيله الى الاشباع في الواقع . يشق لنفسه ، بواسطة الكوس ، طريقا نحو تشبثات قديمة عبر اللاشعور المكبوت . وما دام الانا يجني فائدة ما من المرض . فانه يسمح للعصاب بالوجود ، وان يكن الضرر الاقتصادي الذي يلحق بهذا الانا اكيدا لا ريب فيه .

كذلك . ما كان للوضع المادي المحزن لرسامنا ان يستثير لديه عصابا شيطانيا لو لم يولد لديه بؤسه حيننا معززا الى ابيه . ولما قبض له ان يتحرر من سويدانه ومن ابليس ، نشب فيه صراع جديد بين الرغبة الليبيدوية في التمتع بالحياة وبين احساسه بان تدبر امر معاشه يقتضي منه بتشد الإلحاح العزوف والزهد . وقد شعر الرسام - ومن المبدأ ان نلاحظ ذلك - شعورا عميقا بالروابط التي تربط بين كلا طوري تاريخ الآمه . لانه يعزو كلا منهما الى حلف عقده مع الشيطان . وهو لا يميز على كل حال تمييزا فاصلا بين تأثير الروح الشرير وتأثير القوى الالهية ؛ وليس لديه كليهما سوى اسم واحد ؛ فهزرات شيطانية .



السري . ويتبقى طي الالبسة فوفه بطريقة معينة . كما ينبغي ان يكون غطاء السري مطرزا في اطرافه : ولا بد ان يكون اشرف مشدودا وبلا ثنيايا . ومن الواجب صف المخدات بطريقتيه او باخرى . بل لا بد ان يكون الجسم نفسه في وضعية محددة بدقة: فعندئذ فقط يكون من حق المرء ان يخلد الى النوم . وفي الحالات الحقيقية يبدو الطقس وكأنه مغالاة بنظام معناد ومبرر . غير ان الوسوسة الضميرية التي تؤدي به . والخصر الذي ينشأ عن الاخلال به . يضيغان على الطقس طابع «فعل مقدس» . فكل ما يعكزه وبشوشه لا يتقبل بتسامح : ومن الواجب ادائه بعزل عن الجمهور . وفي غيبة الأشخاص الآخرين .

ان جميع اشكال النشاط يمكن ان تغدو افعالا تسلطية باوسع معاني الكلمة . اذا ما افرقت بفعال صغيرة مضافة وجعل لها ايقاع معين من الوقف والتكرار . وليس لنا ان نتوقع العثور على حد فاصل واضح بين «الطقس» و«الافعال التسلطية» . فالافعال التسلطية تنبئ في اغلب الاحيان عن طقس ما . ويتألف المرض . علاوة على هاتين الظاهرتين . من موانع ونواه (خمسول الإرادة) ليس لها من دور في الواقع الا ان تتابع وظيفة الافعال التسلطية وذلك من حيث ان بعض الاشياء تحظر على المريض . بينما لا يسمح له ببعضها الاخر الا بشرط مراعاة طقس مقرر مسبقا . ومن المثير للفضول ان نرى الاجبار Compulsion والحظر (وجوب فعل شيء من الاشياء وانعدام الحق في فعل شيء آخر) على حد سواء لا يطلان في البداية سوى تضايفات الناس الانفرادية ، ولا ينتظران لاجل طويل من الزمن الى سلوكهم الاجتماعي ؛ ولهذا يمكن لأشياء هؤلاء المرضى ان يعالجوا مرضهم على انه مسألة خاصة وان يخفوه وبكتمود لسنين عديدة . وعلى كل ، فان عدد الأشخاص الذين يعانون اشباه هذه الاشكال من العصاب الوسواسي اكبر بكثير مما يصل الى علم الاطباء . زد على ذلك ان الكثيرين من هؤلاء المرضى يجدون لهذا الكتمان طرفسا

مساعد في كونهم يفلجون في اداء واجباتهم على خير وجه في شطر من النهار بعد ان يكونوا قد كرسوا عددا معلوما من الساعات لفعاليهم السرية في خلوة عن سائر الناس .

ويسير علينا ان ندرك ان يكمن وجه الشبه بين الطقس العصابي وبين اشعائر الدينية ذات الصفة المقدسة : في الخوف المنتبئ عن الضمير في حال الاهمال . وفي الاجتناب التام لسائر النشاطات (الازعاج ممنوع) . وفي الطابع المقدس والموسوس للتنفيذ . لكن الفروق ايضا بيّنة . وبعضها صارخ الى حد تبدو معه هذه المشابهة ضربا من انتهاك القديسات : النوع العظيم للافعال التسلطية بالتعارض مع نمطية الطقس الديني (الصلاة ، السجود . الخ) ؛ والطابع الخاص للاولى بالتعارض مع الطابع العام والجماعي للشعائر الدينية ؛ وعلى الاخص الفارق المتمثل في ان افعال الطقس الديني الصغيرة تكون ذات مغزى وقصد رمزي . بينما تبدو افعال الطقس العصابي ساذجة وعارضة من المعنى . ويظهر العصاب الوسواسي هنا وكأنه صورة كاريكاتورية شبيهة هازلة وشبه مؤسفة لديانة فردية خاصة . بيد ان هذا الفارق الحاد بين الطقس العصابي والطقس الديني هو بالتحديد الذي يتلاشى حينما نمضي قدما الى الامام في فهم الافعال التسلطية بالاعتماد على تقنية التنقيب التحليلي النفسي (٢) . فهذا التنقيب يتيح لنا ان نضع حدا نهائيا للظاهر الذي يجعلنا نتصور ان الافعال التسلطية بريئة وعاربة من المعنى . كما انه يبعث اللثام عسبن المصدر الذي يأتي منه هذا الظاهر . وهكذا تمارس على ان ندرك ان الافعال التسلطية ، جميعها بلا استثناء وبجميع تفاصيلها ،

٣ - انظر س. فرويد : مجموعة دراسات مقضية حول نظرية العصبية ،

فيينا ١٩٠٦ ، الطبعة الثالثة ١٩٢٠ .

مترعة بالمعنى ، وأنها تخدم اهتمامات أثيرة لدى الشخص المعنى ،  
وأنها تعبر عن أحداث ذات تأثير دائم وعن أفكار مشحونة بوجدانية  
الفرد . وهي تحقق ذلك بطريقتين : بوصفها تمثيلا مباشرا أو  
بوصفها تمثيلا رمزيا ؛ فمن المناسب بالتالي تأويلها سرياً (٤)  
أو رمزياً .

لزام عليّ هنا ان اسوق بعض الامثلة في تأييد هذه  
الاطروحة . ومن ألف النتائج التي يتمخض عنها التقيب التحليلي  
النفسى في الاغصبة النفسية ، فلن يدعونه ان يعلم ان ما تمثله  
الافعال التسلطية او الطقسية ينبع من حياة المريض الحميمة ،  
بله الجنسية .

أ - درست مرة حالة فتاة كانت تجد نفسها مدفوعة ، بعد  
كل اغتسال . الى تدوير الطشت في مكانه . وكان مدلول هذا  
الفعل الطقسي يكمن في القول المأثور : « لا ترم الماء الوسخ قبل  
تأمين ماء نظيف عوضا عنه » .

وكان الهدف من هذا العمل تحذير اختها ، التي كانت تحبها  
حبا جما ، ومنعها من تطبيق زوجها الذي لم يكن مناسباً لها كثيراً  
قبل ان تتعرف الى آخر يفضلها .

ب - كانت امرأة تعيش منفصلة عن زوجها ، وكانت تجد  
نفسها مدفوعة ، اثناء تناول وجبات الطعام ، الى ان تدع جانباً  
خير القطع . فلا تأكل على سبيل المثال سوى حوافي شريحة اللحم  
المشوي . وتفسر هذا الاستكفاف يرتبط باليوم الذي رأى فيه  
النور . فقد تظاهر لأول مرة يوم صارت زوجها بأنها ستمتنع  
مذذاك فصاعداً عن العلاقات الزوجية . اي يوم استكتفت عن  
خير ما في الزواج .

ج - كانت المريضة نفسها لا تستطيع في الواقع ان تجلس الا

على كرسي واحد ، وما كانت تقوم عنه الا بعسر ومشقة . وكان  
الكرسي ، بحسب بعض تفاصيل حياتها الزوجية ، يرمز فسي  
نظرها الى زوجها الذي بقيت مقيمة على وفائها له . وكانت تفسر  
بالعبارة التالية إجبارها هذا : « من الصعوبة بمكان الانفصال (عن  
رجل ، عن كرسي) بعد جلوسي عليه لأول مرة » .

د - اعتادت لحن من الزمن لحن تكرر فعلاً تسلطياً غريباً  
ولامعقولا في الظاهر . فقد كانت تجري من غرفتها الى غرفة اخرى  
كان في وسطها طاولة ، وكانت ترتب على نحو معين البساط  
المفروش فوق الطاولة ، وتقرع الجرس للخادمة وتأمرها بالاقتراب  
من الطاولة ، ثم تصرفها بأمر مفاير . وفي اثناء الجهود التسي  
بذلناها لتفسير إجبارها هذا ، استذكرت ان بساط الطاولة  
المذكورة ملطخ بقعة كريهة اللون ، وأنها لا ترتب البساط على  
النحو الذي ترتبه به الا ليقع نظر الخادمة على البقعة . وكان  
المشهد كله في الحقيقة تكراراً لحدث يتعلق بزواجها ، حدث طرح  
فيما بعد على عقلها معضلة تستوجب حلاً . ففي ليلة عرسهما  
وقع زوجها ضحية حظ عاثر ليس بنادر حدوثه . فقد وجد  
نفسه مضاباً ببنة و«ركض عدة مرات في تلك الليلة من غرفته الى  
غرفتها» ليكرر المحاولة . وفي صبيحة اليوم التالي قال انسه  
سيشعر بالخجل ، ولا بد ، امام خادمة الفندق التي ستقوم  
بترتيب الاسرة ؛ وعلى الاثر تناول قارورة من الحبر الاحمر وصب  
محتواها فوق الشرشف ، ولكنه فعل ذلك بخرق جعل البقعة  
الحمراء تنتشر في مكان ليس وثيق الصلة بما رمى اليه . وهكذا  
صارت تعيد ، بذلك الفعل التسلطي ، تمثيل مشهد ليلة عرسها .  
وبالفعل ، ان « الطاولة والفرش » هما الشيطان اللذان عليهما  
يعقد الزواج .

هـ - هذه المريضة عينها كانت تبدي ميلاً لا يقاوم الى تسجيل  
رقم كل ورقة نقدية قبل ان تخرج من بين يديها ؛ والحال ان

٤ - نسبة الى السيرة او ترجمة الحياة . -م-

هذا الإجبار كان بدوره قابلا للتفسير بسيرة حياتها . فيوم كانت لا تزال تداعب فكرة هجر زوجها في حال عثورها على رجل أجدد منه بثقتها ، سمحت لرجل في أحد منتجعات المياه المعدنية بأن يغازلها رغم أنها كانت تشك في جد نيته . وذات مرة احتاجت الى قطع ثيابة صغيرة ، فرجته ان يصرف لها قطعة نقدية من ذوات الخمسة الكورونات . ففعل ذلك ، ووضع القطعة النقدية الكبيرة في جيبه . وقال بركة حاسمة انها لن تفارقه بعد اليوم لانها مرت بين يديها . وفي لقاءات تالية عن لها غير مرة ان تسأله ان يريها قطعة الخمسة الكورونات، لتتأكد بنوع ما من مدى مصداقية غزله . لكنها أمسكت من ذلك لسبب بسيط ، وهو انه كسان سيستحيل عليها ان تميز قطعة نقدية من اخرى متساويتين في القيمة . وعلى هذا فان الشك لم يتبدد قط ، بل خلف وراءه ميلا اجباريا الى تسجيل ارقام الاوراق النقدية ، هذه الارقام التي بفضلها تتميز كل ورقة فرديا عن سائر الاوراق المعادلة لها في القيمة .

هذه الامثلة القليلة ، المقتبسة من معين معانياتي الواسع ، لم اسبقها الا تمثيلا على الصاروخة القائلة ان كل شيء في الافعال التسلطية ثر بالمعنى وصالح للتأويل . وكذلك الحال فيما يتعلق بالطقس بحصر المعنى ؛ غير ان البرهان على ذلك سيتطلب عرضا اكثر تفصيلا . ثم انني لا اجهل اننا قد اتعدنا في ظاهر الامر ، بانشفالنا بتوضيح فحوى الافعال التسلطية ، عن دائرة الافكار الدينية .

ان من شروط الحالة المرضية ان يفعل الشخص الخاضع للإجبار ما يفعله من دون ان يعرف مدلوله ، وعلى الأقل مدلوله الرئيسي . وجهود المعالجة التحليلية النفسية هي وحدها التي يمكن ان تجعله يعي معنى الفعل التسلطي ، وبالتالي الدوافع التي تحضه عليه . ونحن نعرف هذا الوضع الذي له خطورته بقولنا ان الفعل التسلطي يفيد في الإبانة عن دوافع وتمثلات **لاواعية** .

ويبدو انه يقوم هنا فارق جديد عن الشعائر الدينية ، لكن لا بد لنا ان نتذكر ان الشخص الورع المفرد يمارس بوجه العمسوم الطقس الديني من دون ان يتساءل عن معناه . بينما يسع الكاهن والمحلل ان يعرفا معنى الطقس هذا - الذي غالبا ما يكون رمزيا . والدوافع التي تحض المؤمنين بالحاح على ممارسة الشعائر الدينية تبقى مجهولة مع ذلك من قبلهم جميعا ، او انهم يتمثلونها فسي وعيمهم في صورة دوافع اخرى تتقدم عليها وتحتل مكانها .

كان تحليل الافعال التسلطية قد اتاح لنا ان نلقي نظرة على انبولوجيا (٥) هذه الافعال وعلى تسلسل الدوافع التي تحض عليها بصورة لا تقاوم . وبوسعنا ان نقول ان من يعانسي ضروب الإجبار والنهي يتصرف وكأنه واقع تحت سلطان **احساس بالذنب** ، لا يعرف عنه شيئا بالاصل ؛ احساس لاشعوري بالذنب ، كما يخلق بنا ان نقول من دون ان نأبه لما بين الالفاظ المقرون بينها على هذا النحو من تصادم . هذا الاحساس بالذنب يكمن مصدره في بعض السيرورات النفسية المبكرة ، لكنه يجد عنصر إحياء دائم له في **الإغواء** الذي تجدهه كل مناسبة راهنة . وهو يولد ، من جهة اخرى ، **حصرا مترقبا** ، انتظارا لمصيبة هي دوما بالمرصاد، حصرا يربطه مفهوم **القصاص** بالادراك الباطني للاغواء . وحين ينزع طقس من الطقوس الى التأسس والتكون ، يكون المريض لا يزال يدرك بوعي ان عليه ان يفعل هذا الشيء او ذلك ، وإلا فسان مصيبة ما ستقع ، وبوجه عام فان نوع المصيبة المتوقعة لا يكون غالبا بعد عن وعيه . لكن العلاقة ، الممكن البرهان عليها في كل حالة ، بين المناسبة التي يبرز فيها الحصر المترقب وبين العنصر الوعيدي الذي تنطوي عليه تكون من البداية محجوبة عن ادراك

٥ - الانبولوجيا : علم الاسباب او مبحث اسباب المرض . -م-

المرض . وهكذا يكون الطقس في بادئ الامر **فعلا دفاعيا** ، او **تأمينا** ضد شيء ما ، او **تديرا وقائيا** .

وتناظر احساس العصابي الوسواسي بالذنب تصريحات ورعاء الناس حين يؤكدون انهم يعرفون انهم في سريرتهم خطأ كبار ؛ ويبدو ان الممارسات التقوية (الصلوات ، الابتهالات ، الخ) لها قيمة تدابير دفاعية ووقائية ، وهي تدابير يستبق بها الوراء كل نشاط من نشاطات النهار ، وعلى الاخص كل مشروع يخرج عن نطاق المألوف .

ومن الممكن ان نصل الى فهم اعظم لاولية العصاب الوسواسي فيما لو قدرنا بحق قدرها الواقعة الاولى الكامنة في اساسه والمتمثلة دوما في **كبت دافع غريزي** (مركب من مركبات الغريزة الجنسية) ؛ دافع غريزي متواجد من الاساس في جيلته الشخص المعني ، وقد امكن له ان يتظاهر لبرهة من الزمن في حياته الطفلية ، ثم وقع بعد ذلك فريسة للكبت . ومع كبت هذه الغريزة تتولد في الوقت نفسه وسوسة ضميرية مفرطة موجهة ضد اهداف هذه الغريزة . بيد ان هذا التشكيل الارتجاعى النفسي لا تساوره الثقة بنفسه ، بل يحس بأنه مهدد باستمرار من قبل الغريزة الواقة له بالرصاد في الاشعور . ويكسبون الاحساس بتأثير الغريزة المكبوتة في شكل تجربة وإغواء ، وفي اثناء سيورة الكبت بالذات يولد الحصر الذي يستحوذ ، بصفته حصرا مترقبا ، على مضمار المستقبل . وسيورة الكبت التي تقضى الى العصاب الوسواسي ينبغي ان تمنع بانها كبت غير مكتمل النجاح ، كبت يندر بان يضعف اكثر فاكثر . ومن هنا يجوز تشبيهه بنزاع لا نهاية له ؛ فالجهود النفسية المتجددة باستمرار ضرورية كما يقوم التوازن في مواجهة ضغوط الغريزة الدائمة . هكذا تولد الافعال الطقسية والتسلطية ، من جهة اولى ، كمقاومة للتجربة والاغواء ، ومن الجهة الثانية كحماية من مصيبة منتظرة . لكن سرعان ما يتضح ان افعال الحماية ضد

التجربة والاغواء ليست كافية ، فتظهر عندئذ الى حيز الوجود النواهي التي يفترض فيها ان تبعدنا عن الموقف الذي قد نتعرض فيه للتجربة . وكما نرى ، فان النواهي تحل محل الافعال التسلطية ، مثلما ان هدف الرهاب Phobie تلامي حتمية نوية هستيرية . ومن جهة اخرى ، يمثل الطقس جملة الشروط التي تبقى فيها اشياء اخرى - غير محرمة بعهد تحريما بانا - مسموحا بها ؛ تماما كما ان معنى طقس الزواج الديني السماح للشخص الورع بالمتعة الجنسية ، اللطخة في غير هذه الحال بالخطيئة . ومن الصفات الاخرى للعصاب الوسواسي ، مثله مثل سائر الاصابات المماثلة ، ان تظاهراته (اعراضه التي منها الافعال التسلطية) ، تمثل تسوية بين القوى النفسية المتصارعة . وهكذا تميط الاعراض اللثام من جديد عن قدر من اللذة التي يفترض فيها ان تحول دونها ، وتضع نفسها في خدمة الغريزة المكبوتة كما في خدمة السلطة الكابتة . بل ان الافعال التسلطية ، التي كانت تغيد في الاصل في الدفاع بالاحرى ، تفدو مشابهة اكثر فاكثر ، مع تقدم المرض ، للاعمال المدانة التي بها كانت تتظاهر الغريزة في الطفولة .

وبوسعنا ان نهتدي الى بعض اثر هذه العلاقات في مضمار الحياة الدينية : فقمع بعض الدوافع الغريزية ونكرانها يبدو انه الاساس الذي قام عليه الدين ايضا ؛ غير ان القومات هنا ليست جنسية خالصة كما في العصاب ، وانما هي غرائز انانية ، ضارة بالاجتمع ؛ علما بان المساهمة الجنسية فيها ليست في اغلب الاحيان مستبعدة . ولقد اعتدنا ان نعزو الشعور بالذنب المنبثق عن إغواء لا تنطفئ جذوته ابدا ، والحصر المترقب في شكل خوف من القصاص الالهي ، اعتدنا ان نعزوهما الى مضمار الدين قبل ان نعزوهما الى مضمار العصاب . ويبقى قمع الغرائز في مضمار الحياة الدينية ناقصا وغير مكتمل ابدا ، ربما بسبب

المقومات الجنسية المختلطة بها ، وربما يحكم الصفات العامة للفريرة . بل ان الانكاسات الشاملة والعودة الى ارتكاب الخطيئة اكثر تواترا لدى الشخص الورع مما لدى الشخص المعسوب ، وهي تشترط نوعا جديدا من النشاطات الدينية : افعال الندامة والتوبة التي لا يعسر علينا ان نجد نظائر لها في العصاب الوسواسي .

لقد رأينا ان للعصاب الوسواسي سمة خاصة ومُحطة تتمثل في ارتباط الطقس بالافعال الصغيرة للحياة اليومية وتظاهره في شكل تعليمات وتقييدات صيانية . وليس لنا ان نفهم هذه الخاصية اللاتعة للنظر من خواص بنية اللوحة السريرية ما لم نذكر ان اولى **النقل** النفسي ، التي اكتشفتها اول الامر فسي تكون الحلم ، تسيطر على السيرورات النفسية للعصاب الوسواسي . ولا يعسر علينا ان نرى ، من خلال الامثلة القليلة التي ضربتها على الافعال التسلطية ، كيف ان رمزية تنفيذ الفعل وتفاصيل هذا التنفيذ تبني وفق اولى نقل مما هو اصيل وهام الى شيء حقير واستبدالي ، كالنقل على سبيل المثال من رجل الى كرسي . وهذا الميل الى النقل هو الذي يدخل المزيد من التعديل على الدوام على لوحة الظاهرات المرضية ، فيجعل من انه الاشياء اهمها واكثرها إحاحا اطلاقا . ونيس يسعنا ان نتجاهل وجود ميل مشابه الى نقل القيمة النفسية في المضمار الديني ، وفي الحقيقة ضمن الاتجاه نفسه ، بحيث ان الممارسة الطقسية الثانوية الاهمية للشعائر الدينية تغدو شيئا فشيئا هي الاساسية بعد تنحية مضمونها التصوري جانباً . ولهذا تتعرض الاديان لهرات من الاصلاحات الرامية الى اعادة توليد العلاقة الاصلية للقيم .

ان طابع التسوية الذي تتسم به الافعال التسلطية بصفتها اعراضا عصابية هو عينه الذي لا يُعيز الا باقل الوضوح فسي الافعال الدينية المناظرة لها . ومع ذلك فان ثمة شيئا ما يذكركنا

بسمة العصاب هذه حينما نرى بأم عيننا كيف ان جميع الافعال التي يسججها الدين - تظاهرات الفرائز المكبوحة من قبل الدين - تفعل باسمه في كثير من الاحيان ولصالحه على ما يقال .

يحكم هذه التوافقات وهذه التشابهات ، قد يكون جائزا لنا ، على ما في ذلك من مجازفة ، ان تصور العصاب الوسواسي على انه نظير مرضي لتشكل الاديان ، وان نصف العصاب بأنه تدين فردي ، والدين بأنه عصاب وسواسي عام . والتوافق الجوهري يكمن من هذا المنظور في الاستنكاف عن ممارسة الفرائز الداخلة في تكوين الانسان وجلبته ، كما يكمن الفارق الاساسي في طبيعة هذه الفرائز التي تكون في العصاب من اصل جنسي صرف ، وفي الدين من طبيعة انوية ايضا .

ان الاستنكاف التدرجي عن الفرائز المكونة لجلبته الانسان ، والتي قد توفر ممارستها لذة اولية لنا ، هو على ما يبدو واحد من أسس تطور البشر الحضاري . وتتولى الاديان انجاز شطر من هذا الكبت للفرائز ، اذ تحض الفرد على التضحية بملذاته الغريزية وتقديمها قربانا للاله . يقول الرب : «الي النعمة والجزاء» (١) . وبدلنا تطور الاديان القديمة ، بحسب ما يتراءى لنا ، على ان الكثير من «الاتام» التي عزف عنها الانسان قسدا «حوّلت» الى الله ، وكانت لا تزال مباحة باسمه ، بحيث ان التنازل والتحويل للاله كان الوسيلة التي بها يتحرر الانسان من سلطان غرائزه الشريرة والفسارة بالمجتمع . وعليه ، ليس من قبيل المصادفة ان تكون جميع الخصائص البشرية - مع ما يتفرع منها من أعمال شريرة - قد عزيت الى الالهة القديمة بغير ما حدود ، كما لم يكن ضربا من التناقض مع ذلك الا يؤذن للانسان بتبرير آثامه بالمال الالهي .

٦ - سفر التنبية ، الاصحاح ٣٢ ، الآية ٣٥ . -م-

فأما الكلمة فكانت **Vaterarsch** (٢) ؛ وأما الصورة التي كانت تصاحب هذه الكلمة فتمثل الأب في شكل القسم السفلي من جسم عارٍ ، محبو بذراعين وساقين ، وناقص منه الرأس والقسم العلوي من الجسم . وما كانت الأعضاء التناسلية بظاهرة ، بل كانت معالم الوجه مرسومة على البطن .

وإذا اردنا تفسير مثل هذا العرض النادر في لامعقوليته وخلفه ، فلا بد ان نأخذ في اعتبارنا ان ذلك الفتى ، المكمّل اصلا تطوره العقلي والمفعم اخلاقيا بصنوات سامية ، كان قد تعاطى حتى السنة العاشرة من عمره ممارسات ايروسية شرجية نشطة ومتعددة الاشكال . وبعد ان تغلب على هذا الطور ، ارتدت حياته الجنسية الى ذلك الطور الاول بفعل الصراع اللاحق الذي خاض غماره ضد الايروسية التناسلية . وكان يحب اباه ويجلته كثيرا ، وكان يخشاه ايضا الى حد ما . لكن اباه كان يبدو في ناظره ، وبالقياس الى المثل الاعلى الذي جعل نصب عينيه ان يدركه : الزهد وقمع الفرائز ، ممثل الشطط والشبق والنهم الى المتع المادية .

وسرعان ما اتضح ان كلمة **Vaterarsch** هي ترجمة المانية مأكرة للقب «البطريق» (٣) النبيل ، وأن الصورة الوسواسية مستمدة من رسم كاريكاتوري مشهور . وهذه الصورة تستحضر الى ذهننا للحال تمثيلات اخرى تستبدل ، بقصد الازلال والمهانة ، تمام الشخص بعضو واحد من اعضائه ، وعلى سبيل المثال عضوه

## موازيات ميتولوجية

### لتملك ولسوا السمي تشكيلي (١)

ان منتجات النشاط التفكيرى اللاشعوري لدى واحد مسن مرضاي - وهو في حوالي الحادية والعشرين من العمر - لا تتظاهر للوعي في شكل افكار وسواسية فحسب ، بل ايضا في شكل **صور وسواسية** . وقد تنبثق الافكار والصور معا او قد تظهر مستقلة بعضها عن بعض . ولدى هذا المريض كانت كلمة وسواسية بعينها وصورة وسواسية بعينها تترددان في خاطره بترايط وثيق لردح من الزمن كلما شاهد اباه يدلف الى الغرفة .

٢ - كلمة نعر ترجمتها الى العربية - ومعناها الاقرب : الاست الابوية .

- ٢ -

٣ - البطريق **Patriarche** : لقب شيوخ اديباط بني اسرائيل ، ولقب كبير الاشراف عند الرومان ، ولقب كبير الاساقفة عند المسيحيين الشرقيين ، وهي تعني اشتقاقا الاب . -م-

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في **الجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي** ، **الجلد ٤ ، ١٩١٦ .** -م-



الناسلي ، او استيهامات لاشعورية تفضي الى تماهي الكائن  
بتمامه بأعضائه التناسلية ، او تعابير طريفة كقولنا : « انا كلي  
آذان » .

لقد بدأ لي رسم قسّمات الوجه على بطن الصورة الكاريكاتورية  
مستغربا جدا في بادئ الامر . لكن سرعان ما تذكرت ان ناظري<sup>٤</sup>  
وقعا على شيء من هذا القبيل في الرسوم الكاريكاتورية  
الفرنسية (٤) . ثم شاءت المصادفة ان تقع تحت يدي صورة من  
العصور القديمة تطابق بدقة صورة مريضى الوسواسية .

فيمقتضى الميتولوجيا الاغريقية ، قدمت ديميتريا (٥) السى  
إيلوزيس (٦) بحثا عن ابنتها المخطوفة . فاستقبلها ديزولس  
وزوجته بوبو ، لكنها عافت الطعام والشراب لشدة حزنها . فرفعت  
عندئذ مضيفتها بوبو طرف رداؤها فجأة وكشفت عن بطنها .  
وأرغمتها بذلك على الضحك . ومناقشة هذه النادرة ، التسي  
يفترض فيها في أرجح الظن ان تقدم تفسيراً لطفس سحري لم  
يعد اليوم مفهوماً ، موجودة في المجلد الرابع من كتاب سالومون  
ريناخ : **العبادات والاساطير والاديان** (١٩١٢) . وقد جاء في هذا  
الكتاب أيضا انه اكتشف في حفريات بريتا (٧) ، في آسيسا

- 
- ٤ - انظر : «البيون اللامحتمة» ، رسم كاريكاتوري لجان فيير لانكلرا  
في سنة ١٩٠١ في كتاب ادوار فوكس : **العنصر الابروسي في الكاريكاتور** ،  
١٩٠٤ (البيون هو الاسم القديم والشعري لبريطانيا . ومعنى البيضاء . م-)  
٥ - ديميتريا : إلهة الزراعة والارض لدى الاغريق ، وابنتها كورا اعطتها  
بالوبون - ملك العالم السفلي ، ويزوجيا وقاسمها ملكه . م-  
٦ - إيلوزيس : مدينة اغريقية كان فيها معبد مشهور يحتفل فيه بأسرار  
إيلوزيس . م-  
٧ - بريتا : مدينة ايونية قديمة في آسيا الصغرى . م-

الصفري، آجر مشوي يمثل بوبو . وهو عبارة عن جسم امرأة بلا  
رأس ولا صدر . وعلى بطنه رسم وجه ؛ والرداء المرفوع يحيط  
بهذا الوجه وكأنه اكليل من الشعر (٨) .

---

٨ - سالومون ريناخ ، المصدر المذكور أعلاه ، ص ١١٧ .

في غيبة من الوداعة والروعة ( This Sweet Woman )  
 مما ترك في انطباعا آسرا . وخطرت  
 الفكرة التالية : كلا ، لا وجود لله ؛ فلو  
 بسوق هذه المرأة العجوز الطيبة ( This Dear Old Man )  
 الى قاعة التشريح .

« في اثناء اوبتي في عصر ذلك اليوم الو يتي اتحدث ، تحت  
 تأثير المشهد الذي رأيته في قاعة التشريح ارا بالا اضع قدمي  
 في كنيسة بعد ذلك اليوم ابدا . وكانت  
 مذاهب المسيحية .

« لكن فيما كنت لا ازال اعيد تكرري ذلك كله ، طفق صوت  
 يتكلم في داخل نفسي ، منها اباي التي سب التفكير بمريد من  
 الثروي بقراري .

« وفي الايام التالية ابان الله لثفسي بوضوح ان الكتاب المقدس  
 هو كلمة الله ، وان كل ما نلقن اياه عن يسوع المسيح صحيح ،  
 وان يسوع هو املنا الوحيد . وعلى اثر هذا التجلي صرت ارى  
 في الكتاب المقدس كلام الله ، وفي يسوع المسيح منقذي . ومنذئذ  
 تجلى لي الله مرارا ببيئات لا سبيل الى الخطا في تأويلها .

« وبصفتي طبيبا واخا ( Brother Physician ) ارجوك  
 ان توجه افكارك نحو هذا الموضوع الهام ، واؤكد لك انك لست  
 اوليته اهتمامك وفتحت له كل عقلك ، فسيكتشف الله لنفسك  
 انفسا عن الحقيقة ، نظير ما فعل « هوراسيو كاريون » غيري . . . »  
 لقد اجبت براسي . . . على الامتيازات لما علمت ان مثل  
 ذلك الذي كان عليه « هوراسيو كاريون » هو الذي فعل لي  
 ذلك الذي فعل لي . . .

## حادثة من الحياة الدينية<sup>(١)</sup>

في خريف عام ١٩٢٧ نشر صحفي جرمانى - اميركي ( غ. س. فيريك ) - وكنت قد سعدت بمقابلته - نص المحادثة التي دارت  
 بيننا والتي تطرقت الى ضعف ايماني الديني ولا مبالاتي بالحياة  
 بعد الموت . وقد فرئت هذه المحادثة المزعومة على نطاق واسع ،  
 وعادت عليّ ، في ما عادت ، بالرسالة التالية من طبيب اميركي :  
 « . . . اكثر ما اثر فيّ كان ردك على هذا السؤال : هل تؤمن  
 ببقاء الشخص بعد الموت ؟ وقد اجبت : « هذا عندي سواء » .  
 « اني اكتب اليك اليوم لأطلعك على حادثة جرت لي فسي  
 السنة التي كنت انهي فيها دروسي الطبية في جامعة س . . .  
 كنت في عصر احد الايام في قاعة التشريح حين جاؤوا بجثة امرأة  
 عجوز ووضعوها على احدى طاوولات التشريح . كان وجه تلك المرأة

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة في مجلة ايمانوا ، المجلد ١٤ ، ١٩٢٨ . -ب-

اثبات ذلك . وكانت نقطة الاوج في الجواب توكيده لي بأنه يصلي  
لله من اجلي بحرارة ، سائلا اياه ان يهبني الايمان الحق  
Faith To Believe .

ان هذه الصلاة لم تستجب بعد . غير ان الحادث الديني  
الذي حدث لزيملي يدعو الى التأمل وإعمال الفكر . وقد لا أحجم  
عن القول بأنه يستاهل بذل محاولة لتأويله وردة الى دوافع  
وجدانية ، لان هذا الحادث مدهش يحد ذاته ولا يستند الى  
اساس مكين من وجهة النظر المنطقية . فمعلوم ، بالفعل ، ان الله  
يدع فظائع كثيرة اخرى تحدث خلا تواجد جثة امرأة عجوز لطيفة  
التقاطيع على طاولة للتشريح . هكذا كانت الحال في كل زمان  
وآن ، وما كان لها ان تختلف يوم كان زيملي الاميركي يستكمل  
دراسته . ومع ذلك ما كان يمكن لهذا الطبيب المبتدئ ان يكون  
جاهلا بالعالم الى حد عدم معرفة اي شيء على الاطلاق عن جميع  
تلك المصائب والفواجع . اذن فلماذا لم ينفجر تمرده على الله الا  
عندما أحس بما أحس به في قاعة التشريح ؟ ان من اعتاد على  
النظر تحليليا الى افعال البشر وأحداثهم الباطنة لا يحتاج الى  
إعمال الفكر كثيرا ليتهدي الى التفسير ، بل اكاد ان اقول ان هذا  
الاخير انساب من تلقاء نفسه الى ذاكرتي . ففي اثناء مناقشة  
اوردت فيها ذكر رسالة زيملي الورع ، وديت انه كتب لي ان وجه  
جثة المرأة ذكره بوجه امه . والحال ان ذلك لم يرد في رسالته  
- وعند الامعان في التفكير نتبين انه كان من المستحيل ان يرد  
فيها ذكر ذلك - ولكن ذلك هو التفسير الذي يفرض نفسه على  
نحو لا يقاوم تحت تأثير الكلمات الرقيقة التي استذكر بها المرأة  
العجوز (Sweet Faced Dear Old Woman) . وعلى هذا الاساس  
نستطيع ان نرد مسؤولية ضعف الحكم لدى الطبيب الشاب الى  
الانفعال الوجداني الذي حركته لديه ذكرى امه . واذا لم نستطع  
ان نتحرر من تلك العادة السيئة التي جبل عليها التحليل النفسي  
باصراره على طلب شهادة تفاصيل ودقائق قابلة لتفسير بسيط

ومغاير دونما حاجة الى الشطط والفلو ، فسنستذكر ايضا ان زيملي  
وصفني لاحقا بأنني طبيب وأخ (Brother Physician) .

في مقدورنا اذن ان نمثل الامور على النحو التالي : ان مرأى  
جسم المرأة العاري (او الذي سينعري) ذكر الفتى بامه ، وأيقظ  
فيه الحنين الاموي المنبثق عن عقدة اوديب ، هذا الحنين الذي  
لن يلبث التمرد على الاب ان يقترب به كتكملة له . وبما ان الاب  
والله لم يتبعدا لديه بعد بما فيه الكفاية واحدهما عن الآخر ، فان  
ارادة إفناء الاب يمكن ان تغدو واعية في صورة شك في وجود  
الله وان تسعى الى تبرير نفسها في نظر العقل بالسخط الذي  
تثيره المعاملة السيئة التي يعامل بها الموضوع الاموي . والدافع  
الغريزي الجديد المنقول الى المضمار الديني ما هو الا تكرار للموقف  
الاوديبى ، ولهذا فانه ينتهي سريعا الى المآل نفسه ، ويسقط في  
تبار مضاد قوي . وفي اثناء النزاع لا يبقى مستوى النقل ثابتا ،  
اذ لم يرد ذكر لاية حجج ترمي الى تبرير فعلة الله ، كما لم توضح  
لنا ما البيّنات الاكيدة التي اثبت بها الله وجوده للمرتاب . بل  
يبدو ان النزاع دار في شكل عصاب هلوسي ، اذ سمع المرتاب  
اصواتا داخلية ثنته عن مقاومة الله . ويتظاهر مآل الصراع  
جديد على المستوى الديني ؛ وهذا المآل متحدد مسبقا بمصير  
عقدة اوديب بالذات ؛ وهو يتمثل في خضوع كامل لمشية الله  
الاب ، فاذا بالفتى يرتد مؤمنا ، ويقبل بكل ما تلقن اياه منذ نعومة  
اظفاره عن الله ويسوع المسيح . فلقد عاش حدثا دينيا . وكان  
نصيبه الاهداء .

ان هذا كله لبني غاية من البساطة والشفافية بحيث لا نسعنا  
الا ان نساءل ان لم يكن فهم هذه الحالة يشكل خطوة اتي الامام  
في سكونوجيا الاهداء الديني . واني لاجيل الغاريء هنا الى كتاب  
ممتاز لسناكت، دي سانكس (الاهداء الديني ، بولوتسا . ١٩٢٤)  
يستفيد من جميع مكتشفات التحليل النفسي . وادى مطالعة هذا  
المؤلف يتأكد لنا ما كان يمكن لنا ان نتوقعه : صحيح ان ليست

جميع حالات الإتهام قبله للأول بمثل السهولة التي أولنا بها الحالة التي رويناها هنا . لكن حاشانا لا تناقض في أية نقطة الآراء التي كونها البحث المعاصر بصددها الموثسوسوع . وما يميز ملاحظتنا هو كونها ترتبط بمناسبة خاصة تتيح للشك ان يثور ثورة أخيرة قبل ان يتغلب عليه الفرد بصورة نهائية .

## التحليل النفسي واثبات الوقائع في المضمار القضائي بمنهج تشخيصي (١)

سادتي ،

ان الإدراك المتعاضم لضرورة عدم إيلاء ثقة كبيرة للشهادة ، التي تمثل في الوقت الراهن في مضمار العدالة أساس عدد لا يحصى من أحكام الادانة ، قد عزز لديكم ولا شك ، انتم قضاة القعد ومحاميه ، الاهتمام المنصب على منهج جديد في البحث والتنقيب قمين بأن يرغم المتهم على ان يثبت بنفسه ، بقرائسن

---

١ - محاضرة القاها فرويد في اطار دروس الدكتور لافلر العملية نفسى جامعة فيينا في حزيران ١٩٠٦ ، وظهرت للمرة الاولى في «ملفات الانثروبولوجيا الاجرامية وتحليل الاجرام» التي كان يصدرها هانس غروس ، المجلد ٢٦ ، ١٩٠٦ .

فكرة قابلة للتطبيق على النتائج المحرزة . وهي لم تأخذ كامل معناها ولم تصبح خصبة الا حين شرع بلولر (٢) Bleuler وتلامذته في ميونيخ ، وبالاخص يونغ (٤) ، بالاهتمام ب «تجارب الترابط» هذه . ومع ذلك لم تكتسب التجارب الاخيرة هذه من قيمة الا بفضل الفرضية التي تنص على ان الاستجابة للكلمة الحائنة لا يمكن ان تكون بنت المصادفة ، بل هي متحددة بالضرورة والحتم لدى المستجيب بمضمون سابق الوجود من التمثلات .

لقد اعتدنا ان نطلق اسم «العقدة» على مضمون التمثلات القادر ، على هذا النحو ، على التأثير على الاستجابة للكلمة الحائنة . ويظهر هذا التأثير إما بان تمس الكلمة الحائنة العقدة مسا مباشرا ، واما بان تفلح هذه العقدة في الاتصال بالكلمة الحائنة عن طريق توسطات . وجبرية الاستجابة هذه واقعة جذرية بكل انبياها ؛ و او راجعتم ما كتب حول هذا الموضوع لوجدتم كم كانت الدهشة التي اثارها كبيرة وسافرة . غير انه لا مجال للشك في صدق الواقعة ، لان بوسعكم بصورة عامة ان تختبروا هذه العقدة ذات التأثير وان تفهموا ، بفضلها ، استجابات كان من شأنها ان تبقى في غير هذه الحال لامفهومة ، وحسبكم لذلك ان تستجوبوا الشخص الراذ للفعل حول دوافع استجابته . والامثلة الواردة في الصفحات ٦ ، ٨ ، ٩ من دراسة يونغ (٥) قيمتها بان تحملنا

٣ - يوجين بلولر : طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ - ١٩٢٩) : حاول تطبيق نظرية فرويد في علاج فصام الشخصية ، وكان يونغ مساعده . -م-  
٤ - كارل غوستاف يونغ : طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١) ، ساهم مع فرويد في تأسيس التحليل النفسي ، لكنه اختلف معه لاحقا وانتسق عنه . -م-

٥ - يونغ : التشخيص السيكولوجي للوظائف القانونية في مباحث في الطب النفسي والقانون ، ١٩٠٦ ، م ٤ ، ٤ ، ٢ .

موضوعية ، جرمه او براءته . وقسوام هذا المنهج تجسارب سيكولوجية ، واسبابها مباحث سيكولوجية ؛ وهو وثيق الصلة بتصورات محددة لم تطور في مضمار علم النفس الطبي الا مؤخرا . وانا اعلم انكم في سبيلكم الى امتحان صلاحة هذا المنهج الجديد ومدى قيمته بواسطة تجارب يمكن وصفها بأنها «تمارين على اشباح» (Phantomubungen) ؛ وقد لبيت بثلief دعوة رئيسكم . الاستاذ لاوفلر Loeffler ، لاشرح لكم مزيد من التفصيل وشانج هذه الطريقة بالتحليل النفسي .

انتم جميعكم تعرفون اللعبة الجماعية ولعبة الاولاد التي مؤداها الغاء كلمة ما وإلزام الشريك بان يضيف اليها كلمة ثانية تؤلف ، متى ما اقتترنت بالاولى ، كلمة مركبة . كقولنا مثلا : سم ، سار = سمسار . وتجربة النداعي التي ادخلتها مدرسة فونت (٢) على علم النفس ما هي الا ضرب من لعبة الاولاد هذه وان افتقرت الى شرط واحد من شروطها . وبالفعل ، ان قوام هذه التجربة إسماع شخص من الاشخاص كلمة ما - الكلمة الحائنة - وعلى الشخص ان يجيب عن هذه الكلمة بأسرع ما يمكن بكلمة ثانية تحظر بباله ، وهذا ما يسمى ب «الاستجابة» ، لكن من دون ان يفرض عليه اي حد في اختيار كلمة الاستجابة هذه . وموضوع الرصد والملاحظة هو الوقت اللازم للاستجابة ، والعلاقة القائمة بين الكلمة الحائنة والاستجابة ، وهي علاقة يمكن ان تكون على قدر كبير من التنوع . غير انه لا يمكن القول ان هذه التجارب تمخضت في بادئ الامر عن نتيجة مرموقة . وهذا مفهوم . لانها اجريت من دون ان يطرح السؤال على اساس معين . وكانت تفتقر الى

٢ - فليم فونت : فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٢٢ - ١٩٢٠) : مؤسس علم النفس التجريبي . -م-

على التمثيل من السيرورات النفسية واعتباطيتها المزعومة .  
 القوية على « قبل تاريخي » أفكار بلول - يونغ  
 المعلقة بالعمدة لدى الشخص المفحوص . في  
 عام 1961 (6) ان مجموعة بكاملها من  
 التي كانت تعتبر لا تليل لها ، متعينة على  
 العكس ، بما تساهم بقدر هذا التعيين في التقليل من حرية  
 الاختيار . وقد جعلت موضوع دراستي الهفوات الصغيرة .  
 من لسان وعثرات قلم وتضييع للاشياء ،  
 وأوضاع من الانسان عندما يتورط في فلتة لسان . لا يجوز رد  
 مسأله الى المصادفة ولا الى صعوبة النطق او تشابسه  
 الإيديولوجية . نستطيع ان نكتشف في كل مرة مضمونا من  
 التورط على - هو المسؤول عن بليلة الاشياء وعن تحوير  
 كان بيئة الشخص ان يقوله . وقد رصدت . فضلا عن  
 التي الناس الافعال الصغيرة التي تبدو اعتباطية وبلا قصد  
 من أفعال صغيرة تافهة والعب الخ ، ونزعت عنها قناعها .  
 عني ان ابين انها « أفعال اعراضية » ذات صلة بمعنى خفي ،  
 فيقتها ان تدبر له تعبير لا يلفت الانتباه . وقد ثبت لنا ايضا  
 من اسما من الاسماء لا يمكن ان يخطر ببالكم من دون ان يكون  
 سعنا بعدة تمثلات ، ممكن تسليط الضوء عليها ؛ وحتى الارقام ،  
 التي يجري اختيارها في الظاهر حسب المراد ، يمكن ارجاعها الى  
 عند خفية مشابهة . وقد امكن لاحد زملائي ، الدكتور الفريسد  
 آذر ، بعد بضع سنوات ان يؤيد بعدد من الامثلة الجيدة هذا

٦ - علم نفس امراض الحياة اليومية في شهرية الطب النفسي وعلم  
 لاعصاب ، المجلد ٥ .

التوكيد الذي كان من بين توكيداتي اكثرها اثارا للدهشة (٧) .  
 فاذا ما الفنا هذا التصور لجبرية الحياة النفسية فبمنا - وهذا  
 استنتاج تبرره نتائج الدراسة النفسية لامراض الحياة اليومية -  
 ان استجابات الشخص الخاضع لتجارب الترابط لا يمكن ان تكون  
 هي الاخرى اعتباطية ، بل لا مناص من ان تكون متوترة بمضمون  
 من التمثلات يعتمل في داخل نفسه .

اخيرا ، ايها السادة ، لنرجع الى تجربة الترابط . فسي  
 الحالات التي كانت حتى الان موضع نظر ، كان الشخص المفحوص  
 هو الذي يعلمنا عن مصدر الاستجابات ، وهذا الوضع يجرد هذه  
 المحاولة من كل قيمة من وجهة النظر القضائية . لكن ماذا  
 سيحدث فيما لو عدلنا نظام التجربة ، على نحو ما نفعل عندما  
 نحل معادلة من عدة كميات بالاستناد الى كمية بعينها او السى  
 اخرى ، جاعلين من أ أو ب المجهول س الذي نبحث عنه ؟ لقد  
 كانت العقدة حتى الان هي المجهولة بالنسبة لنا ، نحن  
 الفاحصين ، وكنا نبلوها ونجسها بواسطة كلمات حائنة ، اخترناها  
 بارادتنا ، وكان الشخص المفحوص هو الذي يفصح لنا عن العقدة  
 التي ترغمها الكلمات الحائنة على الظاهر . فلنعكس طريقة العمل ،  
 ولنختار عقدة معروفة من قبلنا ، ولنؤثر عليها بكلمات حائنة مختارة  
 عن عمد ، ولننقل المجهول س الى طرف الشخص الراد للفعل ؛  
 افلا يمكن عندئذ ان نقرر ، بحسب نتيجة الاستجابات ، هل يحمل  
 الشخص المفحوص في داخل نفسه العقدة المذكورة ؟ انتم ترون  
 ان هذا التنظيم للتجربة يتجاوب بدقة مع وضع قاضي الاستنتاج

٧ - آذار : ثلاثة تحاليل سيكولوجية للافكار الرقمية وللواسوس الرقمية  
 في اسبوعية فون برسلر للكتابات الطبية النفسانية والنصية ، ١٩٠٥ ،  
 العدد ٢٨ .

على التمثيل من السيرورات النفسية واعتباطيتها المزعومة .  
 القوية على « قبل تاريخي » أفكار بلول - يونغ  
 المعلقة بالعمدة لدى الشخص المفحوص . في  
 عام 1961 (6) ان مجموعة بكاملها من  
 التي كانت تعتبر لا تليل لها ، متعينة على  
 العكس ، بما تساهم بقدر هذا التعيين في التقليل من حرية  
 الاختيار . وقد جعلت موضوع دراستي الهفوات الصغيرة .  
 من لسان وعثرات قلم وتضييع للاشياء ،  
 وأوضاع من الانسان عندما يتورط في فلتة لسان . لا يجوز رد  
 مسأله الى المصادفة ولا الى صعوبة النطق او تشابسه  
 الإيديولوجية . نستطيع ان نكتشف في كل مرة مضمونا من  
 التورط على - هو المسؤول عن بليلة الاشياء وعن تحوير  
 كان بيئة الشخص ان يقوله . وقد رصدت . فضلا عن  
 التي الناس الافعال الصغيرة التي تبدو اعتباطية وبلا قصد  
 من أفعال صغيرة تافهة وألعاب الخ ، ونزعت عنها قناعها .  
 عني ان ابين انها « أفعال اعراضية » ذات صلة بمعنى خفي ،  
 فيقتها ان تدبر له تعبير لا يلفت الانتباه . وقد ثبت لنا ايضا  
 من اسما من الاسماء لا يمكن ان يخطر ببالكم من دون ان يكون  
 سعنا بعدة تمثلات ، ممكن تسليط الضوء عليها ؛ وحتى الارقام ،  
 التي يجري اختيارها في الظاهر حسب المراد ، يمكن ارجاعها الى  
 عند خفية مشابهة . وقد امكن لاحد زملائي ، الدكتور الفريد  
 آذر ، بعد بضع سنوات ان يؤيد بعدد من الامثلة الجيدة هذا

٦ - علم نفس امراض الحياة اليومية في شهرية الطب النفسي وعلم  
 لاعصاب ، المجلد ٥ .

التوكيد الذي كان من بين توكيداتي اكثرها اثارا للدهشة (٧) .  
 فاذا ما الفنا هذا التصور لجبرية الحياة النفسية فبمنا - وهذا  
 استنتاج تبرره نتائج الدراسة النفسية لامراض الحياة اليومية -  
 ان استجابات الشخص الخاضع لتجارب الترابط لا يمكن ان تكون  
 هي الاخرى اعتباطية ، بل لا مناص من ان تكون متوترة بمضمون  
 من التمثلات يعتمل في داخل نفسه .

اخيرا ، ايها السادة ، لنرجع الى تجربة الترابط . فسي  
 الحالات التي كانت حتى الان موضع نظر ، كان الشخص المفحوص  
 هو الذي يعلمنا عن مصدر الاستجابات ، وهذا الوضع يجرد هذه  
 المحاولة من كل قيمة من وجهة النظر القضائية . لكن ماذا  
 سيحدث فيما لو عدلنا نظام التجربة ، على نحو ما نفعل عندما  
 نحل معادلة من عدة كميات بالاستناد الى كمية بعينها او السى  
 اخرى ، جاعلين من أ أو ب المجهول س الذي نبحث عنه ؟ لقد  
 كانت العقدة حتى الان هي المجهولة بالنسبة لنا ، نحن  
 الفاحصين ، وكنا نبلوها ونجسها بواسطة كلمات حائنة ، اخترناها  
 بارادتنا ، وكان الشخص المفحوص هو الذي يفصح لنا عن العقدة  
 التي ترغمها الكلمات الحائنة على الظاهر . فلنعكس طريقة العمل ،  
 ولنختار عقدة معروفة من قبلنا ، ولنؤثر عليها بكلمات حائنة مختارة  
 عن عمد ، ولننقل المجهول س الى طرف الشخص المراد للفعل ؛  
 افلا يمكن عندئذ ان نقرر ، بحسب نتيجة الاستجابات ، هل يحمل  
 الشخص المفحوص في داخل نفسه العقدة المذكورة ؟ انتم ترون  
 ان هذا التنظيم للتجربة يتجاوب بدقة مع وضع قاضي الاستنتاج

٧ - آذار : ثلاثة تحاليل سيكولوجية للافكار الرقمية وللواسوس الرقمية  
 في اسبوعية فون برسلر للكتابات الطبية النفسانية والنصية ، ١٩٥٥ ،  
 العدد ٢٨ .

الذي يهمة ان يعرف ما اذا كانت بعض الوقائع المعروفة لديه معروفة ايضا من قبل المتهم بوصفه فاعل هذه الوقائع . ويبدو ان فرتهايمر Wertheimer وكلاين Klein ، وهما من تلاميذ عالم الاجرام هانس غروس Gross في براغ ، كانا اول من شرع بتعديل نظام التجربة في هذا الاتجاه ، البالغ الاهمية من وجهة نظركم (٨) .

لقد علمتكم تجاربكم بالذات انه توجد في الاستجابات . في اثناء تلك الاستنطاقات ، نقاط استدلال شتى تبيح لكم ان تقرروا هل يعاني الشخص المفحوص او لا يعاني العقدة التي تسعون الى التأثير عليها بكلمات حاتة . وسوف اعددتها لكم تباعا : ١ - المحتوى اللاتوقع للاستجابة والمستوجب لتفسير ؛ ٢ - اطالة زمن الاستجابة ، اذا لم تنلق الكلمات الحاتة التي مست العقدة جوابا الا بعد تأخر ملحوظ (يبلغ في كثير من الاحيان اضعاف زمسن الاستجابة المعتاد) ؛ ٣ - الخطأ الذي يظهر في التكرار . وانتم تعلمون ما الواقعة الالفة للنظر الملمع اليها هنا . فعندما نعيد طرح مجموعة من الكلمات الحاتة على الشخص المفحوص بعد مرور وقت وجيز على طرحها عليه في تجربة اولى ، نجده يكسر استجابات المرة الاولى عينها ؛ ولا يستبدل الاستجابة الاولى بأخرى مغايرة الا بالنسبة الى الكلمات التي مست العقدة مباشرة ؛ ٤ - واقعة الاستمرار (وساقول بالاحرى : استمرار المفعول بعد انتهاء التجربة) . وبالفعل ، كثيرا ما يحدث ان يستمر المفعول الناجم عن استيقظ العقدة بكلمة حاتة («كلمة حرجة») تعنيها (وعلى سبيل المثال اطالة زمن الاستجابة) ، فيعدل حتى الاستجابات للكلمات التالية غير الحرجة . اذن ، فحيثما تلتق هذه القرائن كافة ، او عدد كبير منها على الاقل ، تكن العقدة التي

٨ - نقلا عن يونغ ، المصدر الانف الذكر .

تعرفها قد تكشففت عن انها باعثة على الاضطراب لدى الشخص المستنطق . وعليكم ان تفهموا هذا الاضطراب على النحو التالي : ان العقدة المائلة لدى الشخص المستنطق مشحونة وجدانيا وقادرة بالتالي على سحب كمية معينة من الانتباه من مجهود الاستجابات ؛ وبذلك يحق لكم ان تروا في هذا الاضطراب حالة من حالات «الخيانة النفسية للذات» .

اعلم انكم تهتمون في الوقت الراهن بالمصادفات وبالصعوبات التي تكثف هذه الطريقة التي من شأنها ان تقود الظنين الى فضح نفسه بنفسه موضوعيا ، ولهذا الفت انتباهكم الى الواقعة التالية: وهي انه يجري ، منذ نحو عشرة اعوام ، وفسى مضمار آخر ، استخدام طريقة مشابهة تماما بغية كشف المادة النفسية الخفية او المخفية . وسأحاول ان اضع تحت انظاركم ، بقدر الامكان ، نقاط التشابه والاختلاف .

ان ذلك المضمار مغاير جدا بكل تأكيد لمضماركم . وقصدي هنا ان اتكلم بالفعل عن طريقة علاج بعض «الامراض العصبية» التي تسمى بالاعصبة النفسية والتي يمكن ان يكون من نماذجها الهستيريا والافكار الوسواسية . وهذه الطريقة تدعى بالتحليل النفسي ، وكنت انا من طورها بالاستناد الى طريقة المعالجة التطهيرية التي كان ج. بروبر (٩) السياق الى استخدامها فسي

٩ - جوزيف بروبر : زميل فرويد عمل معه في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور برك واشترك معه عام ١٨٩٥ في تاليف كتاب بعنوان «دراسات في الهستيريا» . وكان بروبر يكبره بأربعة عشر عاما ، وكان يستخدم التوبسم المغنطيسي في علاج المرضى النفسانيين ، ثم ما لبث ان استعاض عنه بطريقة التطهير (كاتاريسيس) التي تقوم على انزاع الاسرار التي ترهق المريض من افكار وعواطف مكبوتة . ولكن فرويد لم يقف عند الحد الذي وصل اليه بروبر ، =



فبينما (١٠) . واستيقاظاً للدهشة التي قد تبدونها . أجد نزاماً على\*  
 ان أعرض لكم التشابه القائم بين المجرم والمهستير . فالامر لديهما  
 كليهما امر سر . امر شيء مخفي . لكن تحاشيا لكل مفارقة .  
 سبادر للحال الى التنويه بالفارق بينهما . فالسر لدى المجرم سر  
 معروف من قبله وهو يخفيه عنكم . اما المهستير فمحبوب من قبله  
 ويخفي عليه هو نفسه . اذك ممكن ؟ اجل . كما يتنا نعرف بعد  
 داب وطول بحث : فجميع تلك الامراض تنأى من كون اولئك  
 الاشخاص قد نجحوا نجاحاً عظيمياً في كبت بعض الذكريات  
 والتمثلات المشحونة شعنا وجدانيا قويا ، وكذلك الرغبات المنيئة  
 على هذه الذكريات والتمثلات . بحيث ما عادت في جملتها تلعب  
 أي دور في فكرهم ولا تمثل امام وعيهم . وبذلك تخفى عليهم هم  
 انفسهم . وانما من هذه المادة النفسية المكبوتة ، من هذه «العقد»  
 تنأى الاعراض البدنية والنفسية التي تقض مضاجع المرضى وكأنها  
 ضمير ميكت . اذن فالفارق بين المجرم والمهستير اساسي بصدد  
 هذه النقطة .

غير ان مهمة كل من الطبيب المعالج وقاضي الاستنطاق واحدة  
 مع ذلك ؛ فعلينا ان نكتشف ما هو خفي ومستتر في النفسية .  
 وقد ابتكرنا لهذا الغرض مجموعة من طرائق الاستقصاء والتحرري  
 التي لا نشك في ان السادة رجال القضاء سيأخذون ببعضها .  
 لعل من المفيد لكم ، من وجهة نظر عملكم ، ان تعلموا كيف  
 نعمل نحن الاطباء في ضمائر التحليل النفسي . فبعد ان يروي

= فانصمت عري التعاون بين الاثنين . ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي  
 وحيدا . وقد كتب فرويد فيما بعد يقول : ان تطور التحليل النفسي قد كلفه  
 صداقة بروير وانه لم يكن من السهل عليه دفع هذا الثمن . لكن . لم يكن في  
 مقدوري ان انقضى ما كان» .  
 —

١٠ - ج . بروير وسغم . فرويد : دراسات في الهستيريا ، ١٩٦٥ .

المرض لمرة اولى قصته . ندعوه الى إسلاخ قياد نفسه لتداعياته  
 واثى إخبارنا بما يرد الى خاطره بلا تقييم نقدي . ونحن بذاسك  
 نتطرق من فرضية . لا يشاطرنا هو نفسه ايها ، ومؤداها ان  
 تداعياته لن تكون اعتباطية . بل ستحدد بعلاقتها بسره ،  
 ب «عقدته» . بحيث يمكن اعتبارها . اذا جاز القول ، فسائل (١١)  
 من عقده . وكما ترون ، فانها عين الفرضية التي فضلها وجدتم  
 انه من الممكن تاويل تجارب الترابط . غير ان المريض . الذي  
 نطلب اليه ان يتبع القاعدة وان يبلغنا بكل تداعياته ، لا يبدو قادرا  
 على فعل ذلك . فهو يمسك عنا تارة واحدا من تلك التداعيات ،  
 وطورا واحدا آخر . متوسلا بذرائع شتى : فإما ان هذا التداعي  
 عادم الأهمية . وإما انه خارج نطاق المسألة ، واما انه عار من كل  
 معنى . وعندئذ نطالبه بإطلاعنا على تداعيه ، وبمتابعته بالرغم من  
 تلك الاعتراضات . وذلك على وجه التحديد لان هذا النقد ، باعلانه  
 عن نفسه وتظاهرة للنور ، يقدم لنا دليلا على ان ذلك التداي ذو  
 صلة بالعقدة التي نسعى الى كشفها . ونحن نرى في مسلسلك  
 المرض هذا تجليا ل «المقاومة» الكامنة فيه ، هذه المقاومة التي  
 تبقى ماثلة طول مدة العلاج . ويودي الاشارة باختصار الى ان  
 فكرة المقاومة هذه قد تلبست اعظم الأهمية في فهمنا لتكوين المرض  
 ولأولية شفاؤه على حد سواء .

ولا يسعكم ان تلاحظوا مباشرة هذا النوع من نقد التداعيات  
 في تجاربكم ؛ وبالمقابل ترح لنا الامكانية في التحليل النفسي .  
 نرصد جميع المؤشرات والفران البارزة المألوفة من قبلكم والدالة  
 على عقدة ما . فحين لا يعود المريض يجرو على مخالفة القاعدة

١١ - الفسائل ومقردها قديمة : في الاصل كل עוד يقطع من شجرته  
 فيغرس .  
 —

التي أمليت عليه ، نلاحظ مع ذلك انه يتوقف احيانا في تقسّل تداعياته البينا ، وانه يتردد ويطلّب الوقفات . وكل تردد من هذه الترددات ينمّ في نظرنا ، نحن ، عن تظاهر للمقاومة ويكون لنا بمشابهة علامة على الانسواء الى «العقدة» . والحال انه اهم مؤشر بالنسبة البينا ، مثله مثل امالة زمن الاستجابة بالنسبة اليكم . وقد جرينا هذا المجرى في تأويل التردد ، حتى عندما لا يكون هناك ما يدل على ان مضمون التداعي المجوم ينطوي على اي إشكال ، وحتى عندما يؤكّد المريض ويجزم بأنه لا يستطيع ان يدرك لماذا نفرس انه يتردد في نقله البينا . والوقفات التي نلاحظها فسي التحليل النفسي هي بوجه عام اطول مدة من التأخرات التي تسترعي انتباهكم في تجارب الاستجابة .

اما ثاني مؤشر معلوم لديكم من مؤشرات العقدة ، اي تعديل مضمون الاستجابة ، فيلعب ايضا دوره في تقنيّة التحليل النفسي . فقد اعتدنا ان نرى دوما في إسبط تغيير بطرا لدى مريضنا على طريقة التعبير عن افكاره اشارة الى معنى خفي ، وقد نعرض انفسنا ، حتى عن طواعية ، بتمسكنا بمثل هذا التأويل ، لسخريته وهزئه لامد من الزمن . ونحن نترصد لديه على وجه التحديد العبارات التي يتظاهر فيها اللبس والتي تشفّ من خلال التعبير الحياذي ، عن المعنى الخفي . وليس المريض وحده ، بل حتى الكثيرون من زملائنا الجاهلين بالتقنيّة التحليلية النفسية وبشروطها الخاصة يابون هنا ان يمحضونا بقتيم وبتيموننسنا بالشطط في الشطارة وبالغلاة في التدقيق بالامور وفي تأويلها ؛ بيد ان الحق غالبا ما يكون معنا في نهاية المطاف . وفي الحقيقة . ليس من العسير ان ندرك ان السر المكتوم بعناية لا ينمّ عن نفسه الا بالماعات طفيفة ، ملتبسة المعنى في احسن الاحوال . وفسى النهاية يعتاد المريض على ان يقدم لنا في شكل «وصف لامباشر» كل ما نحن بحاجة اليه لإمالة اللثام عن العقدة .

التي أمليت عليه ، نلاحظ مع ذلك انه يتوقف احيانا في تقسّل تداعياته البينا ، وانه يتردد ويطلّب الوقفات . وكل تردد من هذه الترددات ينمّ في نظرنا ، نحن ، عن تظاهر للمقاومة ويكون لنا بمشابهة علامة على الانسواء الى «العقدة» . والحال انه اهم مؤشر بالنسبة البينا ، مثله مثل امالة زمن الاستجابة بالنسبة اليكم . وقد جرينا هذا المجرى في تأويل التردد ، حتى عندما لا يكون هناك ما يدل على ان مضمون التداعي المجوم ينطوي على اي إشكال ، وحتى عندما يؤكّد المريض ويجزم بأنه لا يستطيع ان يدرك لماذا نفرس انه يتردد في نقله البينا . والوقفات التي نلاحظها فسي التحليل النفسي هي بوجه عام اطول مدة من التأخرات التي تسترعي انتباهكم في تجارب الاستجابة .

اما ثاني مؤشر معلوم لديكم من مؤشرات العقدة ، اي تعديل مضمون الاستجابة ، فيلعب ايضا دوره في تقنيّة التحليل النفسي . فقد اعتدنا ان نرى دوما في إسبط تغيير بطرا لدى مريضنا على طريقة التعبير عن افكاره اشارة الى معنى خفي ، وقد نعرض انفسنا ، حتى عن طواعية ، بتمسكنا بمثل هذا التأويل ، لسخريته وهزئه لامد من الزمن . ونحن نترصد لديه على وجه التحديد العبارات التي يتظاهر فيها اللبس والتي تشفّ من خلال التعبير الحياذي ، عن المعنى الخفي . وليس المريض وحده ، بل حتى الكثيرون من زملائنا الجاهلين بالتقنيّة التحليلية النفسية وبشروطها الخاصة يابون هنا ان يمحضونا بقتيم وبتيموننسنا بالشطط في الشطارة وبالغلاة في التدقيق بالامور وفي تأويلها ؛ بيد ان الحق غالبا ما يكون معنا في نهاية المطاف . وفي الحقيقة . ليس من العسير ان ندرك ان السر المكتوم بعناية لا ينمّ عن نفسه الا بالماعات طفيفة ، ملتبسة المعنى في احسن الاحوال . وفسى النهاية يعتاد المريض على ان يقدم لنا في شكل «وصف لامباشر» كل ما نحن بحاجة اليه لإمالة اللثام عن العقدة .

١٢ - فارت مع علم الاحلام ، ١٩٠٠ .

واوسعي توكيد ما يلي : اننا نرسل بصفة عامة . بالفرائق التي ابتتها لكم . الى توعية المريض بسره . اى بالكبوت . والى وضع حد للنشائي للتعيين السيكولوجي لاغراض دانه . لكن قبيل ان تستخلصوا من هذا النجاح استنتاجات بصدد انتجاح المحتمل لمباحثكم انتم . سنحدد هنا بعض الفوارق التي يسم بها الوضع السيكولوجي .

كنا اسلفنا التنويه بالفارق الرئيسي : فالسر لدى المريض العصبي سر بالنسبة الى وعيه بالذات . اما لدى المجرم فلا سر الا بالنسبة اليكم انتم ؛ لدى الاول جيل فعلي . وان لم يكن بجميع المعاني التي يعكر ان تعطى للكلمة : اما لدى الثاني فلا رجود الا لتظاهر بالجهل . ويرتب على هذا فارق مهم آخر من وجهة النظر العملية . ففي التحليل النفسي يحاول المريض ان يساعدنا بمسا يبذله من مجهود واع ضد مقاومته ، اذ انه يتوقع ان يعود عليه الفحص بفائدة : الشفاء ؛ وبالمقابل لا يعمل المجرم معكم . لانه لو عمل معكم لعمل ضد كل اناه . وبالمقارنة ؛ فان مطلبكم الوحيد من تحليلكم الوصول الى تيقن موضوعي ، بينما لا بد ، في فن الشفاء ، من ان يصل المريض نفسه الى مثل هذا التيقن . غير انه يبقى ان نعرف ما العقبات وما التعديلات التي سيفرضها على طريقتكم انعدام هذا التعاون من جانب الشخص المحض . وهذا وضع لن يكون في مقدوركم ابدا على كل حال ان تحاكونه فسي تماريتكم المدرسية ، لان الزميل اندي استولى عندئذ در الفطنين سيقفون على انهم لا يمكن ان يكونوا مثل شئ وان

باطراد لدى المرضى العصبيين النفسانيين عقدة جنسية مكتوبة (باوسع معاني الكلمة) ، فهذا ما لا نقيم له اعتبارا من منظور الفروق . لكن نمة شيئا آخر . فمهمة التحليل النفسي يمكن تحديدها على النحو القضي التالي في الاحوال طرا : ان المطلوب اكتشاف عقد مكتوبة بفعل مشاعر الكدر والتنقيص ، وهي عقد تصدر عنها ، متى ما حاولت دخول مجال الوعي ، اشارات مقاومة . وهذه المقاومة موضعية بمعنى ما : فمكانها التخشم الفاصل بين اللاشعور والشعور . اما في الحالات التي تولونها اهتمامكم فالمقاومة تابعة بتمامها للشعور . وهذا الفارق لن يسعكم التفاضل عنه ، بل عليكم ان تبادروا ، بواسطة التجارب، الى التاكيد مما اذا كانت المقاومة الواعية تفضح او لا تفضح نفسها بالعلامات عينها التي تتم بها المقاومة اللاواعية عن نفسها . ويخيل الي ، علاوة على ذلك ، انكم لا تستطيعون ان تقطعوا بيقين فيما ان كان من حقكم تاويل قرائنكم الموضوعية على العقد على انها مقاومة ، كما تفعل ، نحن المعالجين النفسانيين . وبالرغم من ان ذلك ليس متواترا لدى المجرمين ، فقد يحدث ان تكون العقدة التي مسستوها لدى الاشخاص موضوع تجاربكم مشحونة بالآلة ، ومن الجائر في هذه الحال ان تتساءلوا عما اذا كانت ستصدر عنها استجابات مماثلة لتلك التي كانت ستصدر عنها فيما لو كانت مشحونة بالكدر والتنقيص .

بودي التنويه ايضا بما يلي : قد يحدث ان يدخل عنصر ما في تجربتكم ، عنصر عادم الوجود بالطبع في التحليل النفسي . ففي اثناء استقصائكم وتحريككم قد يظلمكم مريض عصبي يرده الفعل وكأنه مذنب ، مع انه بريء ، وهذا لان الشعور بالذنب الكامن لديه والواقف بالمرصاد على الدوام يهتيل الفرصة التي يتيحها له الاتهام الموجته اليه . ولا تحسبوا هذه الحالة اختلافا لا طائل فيه؛ بل حسبكم ان تتوجهوا بفكركم الى غرفة الاولاد لترصدوا حالات مناظرة لها كثيرة . فقد يحدث ان تنحوا باللوم على ولد مسن

التحضير للاستنطاقات الجنائية ، فلن نتوصلوا ابدا الى استباق الوضع السيكولوجي الذي يكون عليه المتهم اثناء التحقيق فسي دعوى ما . فما تمارينكم هذه الا «تمارين على الاشباح» ولا يمكن بحال من الاحوال ان تسوغ التطبيق العملي لهذه الطريقة فسي دعوى جنائية . واذا كنا لا نريد العزوف عن الافادة منها ، فامامنا الى ذلك الوسيلة التالية . فمن الضروري ان يباح لكم ، بل ان يفرض عليكم كواجب ان تقوموا بمثل هذه الابحاث طول سنوات وسنوات في كل ما يعرض لكم من دعاوى الاتهام الجنائي الفعلية، ولكن من دون ان يؤذن للنتائج التي ستحوزونها عن هذا السبيل بالتأثير ولو بأقل مقدار على قرارات العدالة . والافضل في هذه الحال الا يتناهى الى العدالة العلم بالاستنتاجات التي تكون ابحاثكم قد قادتكم اليها بصدد تجريم المتهم . وانما بعد قضاء سنوات كثيرة في تجميع الوقائع وإخضاع النتائج المحرزة لفحص مقارن ، يمكن ان تتبدد الشكوك بصدد المنفعة العملية لهذه الطريقة فسي التحري السيكولوجي . وانا أعلم ، بكل تأكيد ، ان تحقيق هذه الامنية ليس منوطا بكم وحكمكم وباستاذكم النابه الذكر .

الاولاد على عمل ما سيء ، فينكر بيقين راسخ غلظته ، لكنه في الوقت نفسه يبكي وكأنه خاطيء ضئيل في الجرم المشهود . وقد يداخلكم الاعتقاد بان الولد يكذب اذ يؤكد براءته ، لكن قد لا يكون كذلك هو واقع الحال . فالولد لم يرتكب حقا ذلك العمل السيء الذي تتهمون به ، بل ارتكب محله وبدلا منه عملا سيئا آخر اتم به جاهلون ولا تلمونوه عليه . اذن فهو محق في إنكار ذنبه المتعلق بأحد المعلمين السيئين ، لكنه يفضح في الوقت نفسه شعوره بالذنب عن العمل السيء الآخر . والمريض العصبي الراشد يتصرف هنا ، كما بصدد نقاط اخرى كثيرة ، تصرف الولد . وكثيرون هم الافراد الذين من هذه الشاكلة ، ومن الجائز لنا ان نتساءل عما اذا كانت طريقتكم ستتوصل الى تمييز هؤلاء الناس – الذين يضعون انفسهم بانفسهم على هذا النحو موضع اتهام – من المذنبين الحقيقيين . وسأضيف ايضا ما يلي : انكم تعلمون انه لا يحق لكم ، بموجب قانون الاستنطاق الجنائي ، استخدام سلاح المباغنة مع الظنين . وعليه ، فهو سيرف سلفا ان المطلوب منه الا يفضح نفسه اثناء التجربة ، وبوسعنا بالتالي ان نتساءل ان كان من الجائز ان نتوقع استجابات متماثلة في حال تركيز الانتباه على العقدة كما في حال انصرافه عنها ، والى اي حد يمكن لنية الكتم والإخفاء ان تؤثر على كيفية الاستجابة لدى هذا الشخص او ذلك .

وعلى وجه التحديد لان الاوضاع التي يفترض فيكم ان تجروا فيها تجاربكم تتميز بالتنوع الشديد ، ترون علم النفس يهتم بالغ الاهتمام بنجاحها . وقد يكون من المحبذ ان نتوجه اليكم بالرجاء بان لا تيسروا بأسرع مما ينبغي من جدواها العملية . اما انسا شخصيا ، فان كنت من ابعد الناس بحكم اهتماماتي عن المساهمة في مزاولة القضاء ، فلن أثقل عليكم مع ذلك فيما لو عرضت عليكم اقتراحا آخر . فمهما تكن ضرورية التمارين المدرسية على

في فكرة الحلم» .

ويبدو ان مفسري الاحلام في العصور القديمة قد استخدموا على اوسع نطاق الفرضية التي مؤداها ان الشيء يمكن ان يدل في الحلم على نقيضه . ويسلم بهذه الامكانية ايضا الباحثون المعاصرون في مضمار الاحلام . وذلك بقدر ما يقرون بصفة عامة بان للحلم معنى وتأويلا (٢) . واعتقد اني لا اتبر المعارضة انسا الاخر عندما افترض ان جميع الذين ساروا معي على طريق التأويل العلمي للاحلام قد اقرؤا ولا بد بان التوكيد الانف الذكر قد اثبتت صحته الوقائع .

لقد تبسر لي ، اثناء مطاعتي بالمصادفة لكتاب بقلسيم لك. آييل (٣) ، ان افهم سر هذا الميل الغريب الذي يتسم بسبه عمل الحلم : اعني نزوعه اني تجاهل التناقض والى التعبير يتمثل واحد عن اشياء متعاكسة . واهمية الموضوع ستبرر لي الاستشهاد هنا حرفيا بالمقاطع الفاصلة من بحث آييل المسع استيعادي معظم الامثلة . وهي تطلعتنا . بالفعل . على هذا الامر الباعث على العجب : ان النهج الانف الذكر ، الذي اعتاد عمل الحلم سلوكه ، هو ايضا من خصائص اقدم اللغات المعروفة . فبعد ان ثبت آييل قديم اللغة المصرية ، التي تكونت - ولا بد - قبل زمن طويل من عصر النقوش الفيروغليفيقية الاولى .

يرد ف قوله :

«ان تشتمل اللغة المصرية . وهي الانثر الثمين الوحيد المتبقي

## طباق المعاني في الالفاظ البدائية (١)

كمدخل الى هذا المقال سأورد ففرة من كتابي علم الاحلام اعرض فيها ملاحظة مستنتجة من البحث التحليلي ، وهسي ملاحظة لم تحفل بعد بتفسير :

«ان الطريقة التي يعبر بها الحلم عن مقولتي التضاد والتناقض لباعثة على الدهشة حقا : فهو لا يعبر عنهما ، بل يبدو وكأنه يجهل ال «لا» . ولكم يبرع في الجمع بين الاضداد وفي تمثيلها في موضوع واحد . وكثيرا ما يمثل ايضا عنصرا من العناصر بنقيضه ، بحيث لا يسعنا ان نعرف ان كان عنصر بعينه من الحلم - قابل لتأويل متناقض - يشي بمضمون ايجابي او سلبي

٢ - انظروا ، على سبيل المثال ، غ. ه. فون شوبرت : رمزية الاحلام ،

الطبعة الرابعة ١٨٦٢ ، الفصل ٢ : لغة الحلم .

٣ - صدر عام ١٨٨٤ على شكل كراسة قيل ان يضمه النايب في السنة التالية الى مجموعة الدراسات في فقه اللغة .

١ - هذا التعليق على كتاب كارل آييل (١٨٨٤) الذي يحمل العنوان نفسه ظهر لأول مرة في حولية الكشوف العنكبوتية والنفسية والارضية النفسية ، المجلد ٢ ، ١٩١٠ . -

من عالم بدائي ، على عدد معين من الالفاظ التي لها معنيان ، واحدهما هو بالضبط نقيض الآخر . ولنتصور ، اذا كان فسي مقدورنا ان نتصور شيئا من هذا القبيل ، استحالة منطقيـة صارخة كالاستحالة التالية : ان كلمة **قوي** تعني في آن واحد القوي والضعيف ؛ وكلمة **ضوء** تعيد في الدلالة على الضوء والظلمة معا ؛ لتخيل ان بورجوازيا من ميونيخ سمي **الجمعة** جمعة ، بينما استخدم بورجوازي آخر اللفظ نفسه في الكلام عن الماء : فيذا يمكن ان يكون مثالا على الطريقة العجيبة التي كان قدامى المصريين يستعملون بها عادة لغتهم . وهل نستطيع ان نلوم ، بعد ذلك ، من اذا طرق مسامعه هذا الكلام هز راسه غير مصدق ؟...» (ص ٤) (وتلي ذلك امثلة) .

«ازاء هذا المثال وغيره من الامثلة المشابهة الكثيرة على هذا الاستعمال الطباقى للفظ الواحد ، لا يمكن ان يخامرنا الشك في انه قد وجد ، في لغة **واحدة** على الاقل ، عدد معين من الالفاظ التي تشير الى الشيء ونقيضه معا . ومهما بدا ذلك باعثا علسى الاستغراب ، فاننا هنا امام واقعة لا مناص لنا من اخذها في حسباننا» (ص ٧) .

ويرفض المؤلف هنا التفسير الذي يعلل هذا الوضع بجناس عرضي ، وينكر ، بقوة مماثلة ، الفكرة التي ترد هذا الوضع الى نقص في التطور العقلي المصري .

«والحال ان مصر لم تكن بحال من الاحوال موطنس العيب واللامعقول . بل كانت على العكس موطن من اقدم مواطن العقل البشري الذي كان قيد التطور ... كان لها نظام اخلاقي صاف يفيض نبلا ، وقد صاغت القسم الاكبر من الوصايا العشر في زمن كانت فيه الشعوب ، الموقوفة عليها الحضارة اليوم ، لا تزال تقدم الاضاحي البشرية لاصنامها المظمة الى الدم . وان شعبا اشمل مصباح العدالة والحضارة في مثل تلك الازمنة المظلمة ما كان له ان يكون لييدا الى هذا الحد في طريقته اليومية في الكلام والتفكير...»

وهؤلاء الناس ، الذين كانوا يتقنون صناعة الزجاج ، والذين كان يسعهم ان يحركوا ويرفعوا بالالات كلا ضخمة ، كان لديهم - ولا بد - قدر كاف من العقل كيلا يعتبروا ان شيئا من الاشياء هو ذاته ونقيضه في آن معا . فكيف نوفق بين هذه الوقائع وبين الواقعة الاخرى المتمثلة في ان المصريين حسبوا انفسهم بمثل تلك اللغة القريبة والمتناقضة ... واعتادوا ان يعطوا الافكار الاشد تضادا جناسا لفظيا واحدا ، وان يربطوا في ضرب من اتحاد لا تفصم عراه بين ما يتنافى شقاها اشد التنافي ؟» (ص ٩) .

قبل ان نحاول الاتيان بأي تفسير ، لا بد لنا ان نأخذ في اعتبارنا ايضا ان نيج اللغة المصرية العجيب هذا قد تعزز وتوطد . «لعل الاغرب بين جميع غرائب المعجم المصري ما يلي : فعلاوة على الالفاظ التي تجتمع بين المعاني الاشد تعارضا ، توجد في هذا المعجم كلمات مزجبة يؤلف فيها لفظان متعاكسا المعنى مركبا ليس له سوى معنى واحد فقط من معنيي العنصرين المكوّنين له . وهكذا نجد ان تلك اللغة العجيبة لا تحتوي فقط على الفاظ تعني **قويا وضعيفا** في آن معا فحسب ، او **امر واطاع** فحسب ، بل كذلك على كلمات مزجبة مثل **شيخ - فتى** . **بعيد - قريب** . **ربط - فصل** ، **خارج - داخل** ... وعلى الرغم من هذا الجمع بين الفاظ ذات معان متناقضة ، فان اولي هذه الكلمات لا تعني سوى **فتى** ، وثانيها **قريب** ، وثالثها **ربط** ، ورابعها **داخل** ... اذن فمن قصد وعمد حقا جرى الجمع في هذه الكلمات بين تناقضات في المفاهيم ، وذلك ليس بهدف خلق مفهوم جديد . كما يحدث في اللغة الصينية احيانا ، بل فقط بقصد التعبير ، بواسطة تلك الكلمة المزجبة ، عن معنى جزء واحد فقط من جزئيات المتضادين ، علما بأن هذا المعنى كان يمكن ان يؤديه هذا الجزء المنفرد وحده ...» .

يبدا ان هذه المشكلة امسبل حلا مما يبدو . فمفاهيمنا ترى التو.

رجل جالس متمب . ومعظم الكلمات الاخرى ذات المعنيين تترقق على نحو مماثل بصور تفسيرية» (ص ١٨) . وبحسب ما يذهب اليه آيبل ، كانت الحركة المصاحبة للكلمة المنطوقة هي التي تعطينا معناها المراد في اللغة المنطوقة .

ان **الجدور الاكثر** بدائية هي الجدور التي تلاحظ فيها ، على ما نشنا آيبل ، ظاهرة المعنى الطباقى المزدوج . اما في مجرى تطور اللغة اللاحق ، فان هذا المعنى المزدوج يتلاشى ويضمحل ؛ وبوسعنا ان نشبع ، في اللغة المصرية القديمة على أي حال ، جميع التدرجات الانتقالية من المعنى الطباقى المزدوج القديم الى المداول الواحد الذي للكلمات في لغاتنا الحديثة . فالكلمات المردوجسة المعنى في الاصل تنفصل في اللغة اللاحقة الى كلمتين لكل منهما مداول واحد . وبطرا على كلا المعنيين المتناقضين تفيض (تعديل) صوتي يظل الجذر الواحد . فكلمة **كين** (قوي ، ضعيف) ، على سبيل المثال ، انفصلت حتى في الكتابة الهيروغليفية الى **سين كين** (قوي) و**الى كان** (ضعيف) . «وبعبارة اخرى ، ان المعاني التي ما امكن الانهتاء اليها الا طباقيا تصير مع مرور الزمن مأووفة لدى العقل البشري الى حد يكفي لتوفير وجود مستقل لكل واحد من الجزئين ولتأمين نطق متماز في الوقت نفسه لكل منهما» .

ويرى آيبل ان هذه البرهنة - السبغة الاجراء بالنسبة الى اللغة المصرية - على وجود طباق في المعاني البدائية : قابلة للتعميم ايضا على اللغات السامية والهندية - الاوروبية . «ويبقى ان نعرف الى أي مدى يمكن ان يحدث ذلك في أسر لغوية اخرى ؛ وآية ذلك انه وان يكن المعنى الطباقى قد فرض نفسه في بادى الامر . ولدى جميع العروق والاجناس ، على البشر الذين اجروا عمليات تفكيرية ، فليس من الضروري ان يكون قد جرى تعرفه او المحافظة عليه في كل مكان» .

بالاستناد الى المقارنة . «فلو كان الكون منيرا طول الوقت لمسا احتجنا الى اجراء اية مقارنة بين النور والعممة ، ولما وجد لدينا لا مفهوم النور ولا لفظه ...» - «من الواضح ان كل شيء نسبي فوق هذه الارض وليس له من وجود مستقل الا بقدر ما تسمح له علاقاته بالاشياء الاخرى بالاقتراب منها او بالتميز عنها ...» - «ما دام المفروض في كل مفهوم ان يكون الضيق انشوا لتقيضه ، وكيف امكن تعقله لاول مرة بالفكر ، وكيف امكن نقله الى الآخرين الذين يحاولون بدورهم ان يتعقلوه بالفكر ، ان لم يكن بقياسه الى تقيضه ...» - «ما دام مفهوم القوة غير قابل للتصور خارج اطار طباقه مع الضعيف ، فان الكلمة التي كانت تعبر عن **القوي** اكتسبت في الذاكرة معنى **الضعيف** ايضا . على اعتبار ان هذا المفهوم الاخير هو الذي اتاح لها في البداية امكانية الوجود . وفي الواقع ، ما كانت هذه الكلمة تشير لا الى القوي ولا الى الضعيف حقا . واما فقط الى العلاقة بينهما والى الفارق الذي خلقهما كليهما» (ص ١٥) - «والحال ان الانسان ما استطاع اكتساب اقسام تصوراته الاساسية الا بفعل التناقض بين الضد وضده ؛ ونم رويدا رويدا بعد ذلك تعلم ان يفصل بين لفظي الطباق ، وان يتعمل كل واحد منهما بالفكر من دون ان يقبسه عن عمد بالآخر» . وما دام الكلام لا يفيد فقط في صوغ الفكر الفردي ، بسل اساسا وجوها في ابصاله الى الغير ، فمن الجائز لنا ان نتساءل عن الوسيلة التي كان «المصري البدائي» يلجأ اليها لابلان نده ب «الجزء الذي يقصده في كل مرة من هذا المفهوم المزيج» ؟ لقد كان ذلك يتم في الكتابة بواسطة ما يسمى بالصور «العيشة» . اي الصور التي كانت ترسم خلف الحروف المكتوبة لتشير الى معنى ما دون ان يكون مطلوبا النطق بها هي نفسها . «حين تعنى كلمة كين المصرية **قويا** ، ترسم خلف الصوت الذي تعبر عنه الحروف المكتوبة صورة رجل واقف مسلح ؛ وعندما تعنى هذه الكلمة عينها **ضعيفا** ، ترسم خلف الحروف المثلثة للصوت صورة

ويلاحظ آيبل علاوة على ذلك ان الفيلسوف بين (٤) Bain  
 قد صادر . استنادا الى أسس نظرية خاصة وعلى سبيل الضرورة  
 المنطقية . على هذا المعنى المزدوج للكلمات . وهذا من دون ان يطلع .  
 على ما يبدو . على الوقائع . والمقطع المسار اليه **المنطقي** .  
 الكتاب ١ . الفصل ٥٤ ، يبدأ على النحو التالي : « ان النسبية  
 الجوهرية لكل معرفة او فكر او وعي لا يمكن الا ان تعكس نفسها  
 في اللغة . واذا نظرنا الى كل ما نعرفه على انه تحول وانتقال من  
 شيء آخر ، فان كل تجربة لا بد ان يكون لها وجهان : فلما ان  
 يكون لكل اسم معنيان واما ان يكون لكل معنى اسمان » .

وانوه ايضا بما ورد . في **ملحق فون بسبيان لاضداد المعاني**  
**في اللغات المصرية والهندية - الاوروبية والعربية** . من امثلة  
 قيمية بان تتوقف انتباهنا وان لم تكن من علماء اللغة : فكلمة  
 Altus باللاتينية تعني عاليا وعميقا ؛ و كلمة Sacer  
 معناها قديس وملعون ؛ اي ان المعاني المتناقضة بقيت هنا كما هي  
 دونما تعديل حتى في طريقة النطق بها . اما التبدل الصوتي يهدف  
 فصل الازداد فمن امثله : Clamare اي صرخ . و Clam  
 اي صامت وهادئ ؛ و Succus اي جاف . و Succus  
 اي عسير . وفي الالمانية . لا تزال كلمة Boden تشير حتى  
 يومنا هذا الى اعلى ما في البيت كما الى ادنى ما فيه . ومقابل كلمة  
 Bos الالمانية اطالع، هناك كلمة Bass (صالح) ؛ وتتعارض  
 الكلمة الساكنونية القديمة Bat (صالح) مع الكلمة الانكليزية  
 Bar (اطالع) ؛ ومقابل كلمة To Lock (اطلق) في الانكليزية  
 هناك في الالمانية Loek ، Lueke (افراغ ، ثقب) . وفي الالمانية

٤ - الكسندر بين : فيلسوف اسكتلندي ١٨١٨ - ١٩٠٣ . مؤلف علم  
 الزمنية و النطق .  
 ٥ - الانكليزية في النطق .

Kleben (الصق) . وفي الانكليزية To Cleav (شق) ؛  
 وفي الالمانية Stumm (الكلم) . و Stimme (صوت) ، الخ .  
 وهكذا قد يكون في وسعنا ان نجد معنى حقيقيا للاشتقاق الذي  
 طالما اتار اسخرية : Lucus A Non Lucendc .  
 يلفت آيبل الانتباه في كتابه **اصل اللغة** ، **Ursprung Der Sprache** .  
 ص ٢٠ ، الى مخلفات اخرى ايضا من نمط الفكر البدائي . فالانكليزي  
 لا يزال يقول الى اليوم كما يعبر عن « بدون » : Without .  
 اي « مع - دون » ؛ كما ان البروسى الشرقى يستخدم تعبير  
 Mitohne . وحتى اللفظ With ، الذي يقابله بالالمانية  
 Mit (مع) . كان يدل في الاصل - ولا بد - على **مع و بدون**  
 معا . كما نستطيع ان نبين ذلك من Withdraw (انصرف .  
 انسحب) ومن Withhold (استيقى) . وهذا التطور عنده  
 نلفاه في اللفظ الالمانى Wider (ضد) و Wieder (معا) .

واللغة المصرية خاصة اخرى باللغة العرابة ، ولزام علينا من  
 جديد ان نقيم مقارنة بينها وبين عمل الحلم . « ففي المصرية  
 يمكن ان تتعرض الكلمات - لنقل ظاهريا في بادى الامر - لانقلاب  
 في **معناها** كما في **معناها** . انفترض ان الكلمة الالمانية Gut  
 (صالح) هي كلمة مصرية . فعندئذ يمكن ان تعني « طالح » بالاضافة  
 الى « صالح » . كذلك فان Gut يمكن ان تلفظ Tug .  
 وهذا القلب ، الاكثر توازنا من ان يمكن عزوه الى الانفصاق  
 والمصادفة . يمكن التمثيل عليه ايضا بأمثلة كثيرة مستقاة من  
 اللغات الآرية والسامية . وان اقتصرنا كيداية على التعابير  
 الجرمانية نجد ان لدينا : Töpe - Pot و Boat - Tub  
 و Care - Reck و Hurry - Ruhe و Wait - Tauwen  
 و Club و Balken - Klobe . وان احتمكنا الى اللغات الهندية -  
 الاوروبية الاخرى . وجدنا عدد حالات القلب يتزايد طرديا مع عدد  
 التعابير موضوع النظر . و معتمدا على سبيل المثال : Capere - Paken



the leaf ( Blatt ) - Folium ren - Niere (ورقصة)  
 - mèdh, mùdha, (باليونانية) dum - a , domos  
 (بالروسية) Kur - iti (بالسنسكريتية) - Mut, rauchen  
 kreischen - to shriek , الخ .

يسمى آيبل الى تفسير ظاهرة القلب الصوتي للالفاظ بتضعيف  
 الجذر وتشديده . وقد يشق علينا ان نجاري هنا فقيه اللغة .  
 وسندكر بهجة الاولاد حين يلعبون بقلب الكلمات صوتيا . ولبجوء  
 عمل الحلم تواترا الى قلب المادة الفكرية لغايات شتى . لكن  
 ليس ترتيب الحروف هو ما يقلب في هذه الحال . بل ترتيب  
 الصور . اذن فنحن اميل الى عزو قلب الاصوات الى عامل يفعل  
 فعله على مستوى اعلى (٦) .

### صعوبة امام التحليل النفسي (٧)

سأبدأ بالتحديد بانني لا ازمع ان اتكلم عن صعوبة فكرية ، عن  
 شيء يجعل التحليل النفسي عصيا على فهم من يتوجه اليه  
 (اسامها كان ام قارئاً) ، بل عن صعوبة وجدانية ، عن شيء يجعل  
 التحليل النفسي يخسر تعاطف السامع او القارئ ويضعف من  
 ميلهما الى ايلائه اهتماما وتصديقا . ويسير علينا ان نتيين ان  
 هاتين الصعوبتين تتمخضان عن نتيجة واحدة . فمن لا يشعر  
 بقدر كاف من التعاطف ازاء شيء ما ، يعجز ايضا عن فهمه بيسر .  
 مراعاة مني للقارئ ، الذي اتصوره من غير اهل الاختصاص ،  
 اراني مضطرا الى رواية القصة من اولها . ففي التحليل النفسي ،

ان التوافق بين خصائص عمل الحلم التي اشرنا اليها فسي  
 مستهل هذا المقال وبين خصائص العرف الالسنى التي اكتشفها  
 فقيه اللغة في اقدم اللغات ، يبدو لنا بمثابة توكيد للتصور الذي  
 كوتاه لانفسنا عن التعبير عن الفكر في الحلم ، وهو تصور مؤداه  
 ان لهذا التعبير طابعا تكوصيا سحق القدم . وهنا لا نستطيع ان  
 نرد عنا ، نحن الاطباء النفسانيين ، فكرة مؤداهنا اننا ستكون اقدر  
 على فهم لغة الحلم وعلى ترجمتها فيما لو كنا اكثر اطلاعا على  
 تطور اللغة (٧) .

٦ - حول ظاهرة الابدال في اللغة ، وهي ظاهرة قد تكون اولئ سلة ايضا  
 من المعنى العكسي (الطباقي) بعمل الحاد ، فانوا ايضا مع ف. ماير - رنتن  
 W. Meyer - Rinteln في الصحيفة الكولونية (Kolnische Zeitung)  
 تاريخ ٧ اذار ١٩٠٩ .

٧ - من الطبيعي الافتراض بان المعنى الاصلي الطباقي للكلمات يمثل الاوانية  
 المسبقة التكون التي نستخدمها فلة اللسان في خدمة ميول شتى ، فقوم هذه  
 الفلة ان يقول الانسان عكس ما كان يريد قوله .

١ - ظهر هذا المقال لأول مرة بالجربة في مجلة Nyugat التي كان  
 يصدرها ه. اغنوتوس في بودابست (١٩١٧) ، ثم باللاتانية في مجلة اباغو ،  
 المجلد ٥ . ١٩١٧ . -م-

وبعد عدد كبير من الملاحظات والانطباعات الانفرادية ، تكون في خاتمة المطاف ضرب من نظرية ، يعرف باسم «نظرية الليبدو» .  
فالتحليل النفسي يسمى ، كما هو معروف ، الى فهم الاضطرابات المسماة بالاضطرابات العصبية والى شفائها . وقد كان مسن الضروري ، للتصدي لهذه المشكلة ، العثور على نقطة يمكن التصدي لها منها ، فقررَ القرار على البحث عنها في الحياة الغريزية للنفس . وهكذا اوضحت جملة من الفرضيات التي تتعلق بحياة الانسان الغريزية هي الاساس الذي قام عليه تصورنا عن الحالة العصبية .

ان علم النفس ، كما يدرّس في مدارسنا ، لا يعطينا ، عندما نستنطقه حول مشكلات الحياة النفسية ، سوى اجوبة غير مقنعة . ولكن ما من ميدان يكتنف فيه الشك المعلومات التي يزودنا بها هذا العلم كميدان الغرائز .

وعليتنا نحن تقع مهمة الاهتداء الى اول الطريق . ان التصور الشعبي يخص بالتمييز الجوع والحب ويرى فيهما ممثلين للغرائز التي تنزع من جهة اولى الى بقاء الفرد ، ومن الجهة الثانية الى تناسله . ونحن اذا تأخذ بدورنا بهذا التمييز الذي يبدو طبيعيا تماما ، فنصل على صعيد التحليل النفسي غرائز البقاء ، او غرائز الانا ، عن الغرائز الجنسية ، ونطلق على القوة التي تتظاهر بها الغريزة الجنسية في الحياة النفسية اسم **الليبدو** (٢) . اي الرغبة الجنسية ، ويرى فيها شيئا يضارع الجوع وارادة القوة ، الخ ، في عداد غرائز الانا .  
وانطلاقا من هذا الفرض نحقق في هذا المضمار اول كشف

٢ - الليبدو : كلمة لاتينية الاصل Libido ، وتعني الرغبة والشهوة والشهية والهمة والنزوة والهوى والحاجة الطبيعية ، الخ . -٣-

هام لنا . فنحن نكتشف اننا بحاجة . كما نفهم الامراض العصبية . الى ان نغزو المدلول الاهم - الاهم بكثير - الى الغرائز الجنسية . وان الاعصبة هي . ان جاز التعبير . الامراض النوعية للوظيفة الجنسية . ونكتشف ايضا ان اصابة الفرد او عدم اصابته بعرض عصابي رهن بكمية الليبدو وبامكانية تلبية هذا الاخير وتغريفه من شحنته بإشباعه . ونفهم ان شكل مرضه يتحدد بالكيفية التي انجز بها الفرد تطور وظيفته الجنسية . او . كما نقول ، بالتشبيكات التي عاينها الليبدو عنده في اثناء هذا التطور . والتقنية التي بحوزتنا ، وهي ليست من ابسط التقنيات ، تمكننا من ممارسة تأثير نفسي على المريض ، وتتيح لنا في آن واحد ان نفهم وأن نرد العديد من ضروب الاعصبة الى اصلها . ومجهودنا العلاجي يحالفه اكبر نصيب من النجاح حيال فئة معينة من الاعصبة : تلك التي تنشأ عن الصراع بين غرائز الانا والغرائز الجنسية . اذا نرى ان تبدو مطالب الغرائز الجنسية . التي تتجاوز بكثير نطاق الفردية ، للانسان وكأنها خطر يتهدد بقاءها بالذات او تقديره - الموجود عليه - لذاته . وعندئذ يبادر الانسا الى اتخاذ موقف دفاعي ، وينزع عن الغرائز الجنسية الاشباع الذي تنوق اليه ، ويجبرها على سواك طرق موارد الحصول على إشباع بديل يتظاهر في شكل اعراض عصبية .

عندئذ يتوصل العلاج التحليلي النفسي الى اعادة النظر في سيرورة الكبت ، رالى توجيسته ذلك اسراع الى مال افضل وانسب للصحة . وهنا ينبغي علينا اخصام غير متفهمين باللائمة . مهمهم ايانا بالتزعة الحميرية وبالمغلاة في تقديرنا لاهمية الغرائز الجنسية : فلانسان بلا ريب اهتمامات اخرى غير الاهتمامات الجنسية ! وهذا في الحق ما لم ننسه او نكتره لحظة واحدة . ووجه نظرننا الحصرية اشبه ما تكون بوجهة نظر الكيمياوي الذي يرد جميع مكونات المادة الى قوة الجذب الكيمياوي . وهو بذلك

لا يماري في الثقالة ، بل يترك للفيزيائي امر تقديرها .  
 لزوم علينا ، في اثناء عملنا العلاجي ، ان اولي توزيع الليبيدو  
 لدى المريض اهتمامنا . لذا نسعى الى كشف التمثلات الموضوعانية  
 Objectales التي تثبتت عليها طاقته الليبيدية . ونحذر  
 هذه التمثلات لتضعها تحت تصرف الانا . وهكذا انتهينا الى تكوين  
 تصور متميز عن التوزيع البدائي لليبيدو لدى الانسان . فقد  
 وجدنا انفسنا مرغمين على الافتراض بان كل ليبيدو وكل ميل  
 ايروسي . كل طاقة حبيبة) تثبتت في بدء نمو الفرد على الذات  
 ويتركز . كما اسلفنا ، على الانا الذاتي . وفي زمن لاحق فحسبنا .  
 وبالارتكاز الى إشباع الحاجات الحيوية الكبرى ، يطفح الليبيدو  
 من الانا على المواضيع الخارجية ، مما يتيح لنا ان نتعرف الفرائز  
 الليبيدية بما هي كذلك وان نميزها عن غرائز الانا . ويمكن  
 عندئذ فصل الليبيدو من جديد عن هذه المواضيع وإرجاعه  
 الى الانا .

وعلى الحالة التي يحتجز فيها الانا الليبيدو نطلق اسم  
**الترجسية** . تذكرت بالاسطورة الاغريقية عن نرجس الفتى . المغموم  
 بصورة نفسه المنعكسة فوق صفحة الماء .

وبذلك نعزو الى الفرد القدرة على التقدم بتحوله عن الترجسية  
 الى الحب الموضوعاني . لكننا لا نعتقد انه من الممكن ان ينصب كل  
 الليبيدو على المواضيع . بل يبقى على الدوام في الانا مقدار ما  
 من الليبيدو . وتظل هناك درجة ما من الترجسية رغم وجود حب  
 غيري نام . ومنطور جدا . فالانسان خزان كبير ، ينسحق خارجة الليبيدو  
 المخصص للمواضيع . وإليه يرتد من جديد . وبما ان الليبيدو  
 الموضوعاني كان في الاصل لليبيدو الانا ، فمن الممكن ان يتحول من  
 جديد الى ليبيدو انوي . ومن الضروري لتمام صحة الفرد الا يفقد  
 ليبيدوه حركيته الكاملة . ولتمثيل على هذه العلاقة حسنيا ،  
 لتتصور المشورة Amibe التي تصدر مادتها الجامدة والمائعة

شوى كاذبة Pseudopodes - اي استطلاات تنتشر فيها المادة  
 الحية - والتي تملك المقدرة في كل آن وحين على ارجاعها الى  
 ذاتها ، بحيث يعود شكل النواة الهولية الصغيرة كما كان  
 من الاول .

ان ما سمعت الى وصفه بما تقدم هو نظرية الليبيدو فسي  
 الاعصبة ، هذه النظرية التي على اساسها يقوم فهمنا لطبيعة هذه  
 الحالات المرضية ويتم تدخلنا العلاجي فيما يتعلق بها . وغنى عن  
 البيان اننا نعتبر مفترضات نظرية الليبيدو هذه قابلة للتطبيق  
 ايضا على السلوك السوي . افلا نتكلم عن نرجسية الولد  
 الصغير ؟ اولا نعزو الى نرجسية الانسان البدائي الراجحة ايمانه  
 بكلية قدرة افكاره ، وبالتالي تصوره بأنه مستطيع ، بواسطة  
 السحر . ان يؤثر على احداث العالم الخارجي ؟

بعد الانتهاء من هذا التمهيد ، بودي ان اعرض كيف ان  
 نرجسية البشرية ، عزة نفسها بوجه عام ، قد تعرضت حتى الان ،  
 وبفعل التحري العلمي ، الى ثلاثة إذلالات خطيرة .

١ - في مستهل هذا التحري اعتقد الانسان في بادئ الامر  
 ان الارض ، التي توفر له المأوى ، تقف ساكنة وسط الكون ،  
 بينما الشمس والقمر والكواكب تتحرك في مدارات دائرية حولها .  
 وبذلك يكون قد صدق بسذاجة حواسه . لان الانسان لا يحس  
 البتة بحركة الارض ؛ وحيثما امكن له ان يحيل نظره بحرية ، وجد  
 نفسه في مركز دائرة تحوي العالم الخارجي . وكان الوضع  
 المركزي للارض ضمانا له على كل حال على دورها الراجح في  
 الكون بالتأزر مع ميله الى الشعور بينه وبين نفسه بأنه سيسد  
 هذا العالم .

ان تقوّس هذا الوهم النرجسي يرتبط بمدنا باسم نيقولا  
 كوبرنيكوس وعمله في القرن السادس عشر . وقد كان ساور  
 الفيثاغوريين قبله بحقبة مديدة شك حول هذا الوضع المتميز

للأرض ، فأعلن أرسطارخوس الساموسي (٢) منذ القرن الثالث ق.م ان الأرض اصغر من الشمس وأنها تدور ولا بد حول هذا النجم . اذن فحتى اكتشاف كوبرنيكوس كان قد تم قبله . ولكنه حين حظي بالقبول العام منيت الكبرياء البشرية بإذلالها الاول ، الإذلال الفلكي .

ب - لقد ارتقى الإنسان ، في مجرى تطوره الحضاري ، الى دور السيد على أقرانه من الجنس الحيواني . ولكنه لم يكتف بهذه السيادة ، بل طفق يحفر هوة بينهم وبينه . فأنكر عليهم العقل ، وجبا نفسه بروح لا تفنى ، وتباهى بنسب إلهي سمح له بتمزيق كل رابطة تضامن مع العالم الحيواني . وهذا الصلف - وهذا مثير للفضول - يبقى مجهولا من الولد الصغير كما من الإنسان البدائي . فهو نتيجة تطور لاحق ، ذي مطامح اوسع . فالإنسان البدائي ، في طور الطوطمية ، ما كان يتحرج البتة من نسب عشيرته الى سلف حيواني . والاسطورة ، التي تحتوي عصارة هذا النهج القديم في التفكير ، تلبس الآلهة أجسام حيوانات ، كما يصور فن الأزمنة البدائية الآلهة برؤوس حيوانية . ولا يشعر الطفل بأي فارق بين كينونته وكينونة الحيوان ؛ ولا يدهشه البتة ان تحدثه الحكايا عن حيوانات مفكرة وناطقة ؛ ويعزو الى الكلب او الحصان شحنة الخوف الذي يبعثه والده في وجدانه ، من دون ان تساوره في ذلك اية نية للتناقص من قدر ابيه . وإنما بعد ان

٣ - أرسطارخوس الساموسي : عالم فلك اغريقي (نحو ٢٢٠ - ٢٥٠ ق.م) ، من أتباع فيثاغورس ، اظهرت له قياساته الهندسية للمسافات بين الأرض والشمس والقمر بطلان نظرية ارسطو القائلة بأن الأرض هي مركز الكون ، وافضت به هذه القياسات الى المناداة بنظرية تعد الشمس مركز الكون ، ولكن مذهبه لم يلق قبولا في العصور القديمة وظل منسيا حتى ايام كوبرنيكوس . -م-

يشب عن الطوق ، ينأى عن الحيوان ويصير يشتم الانسان باطلاق اسماء حيوانية عليه .

اننا نعلم جميعا ان مباحث تشارلز داروين ومعاونه وسابقه قد وضعت حدا لادعاء الانسان هذا منذ نحو نصف قرن مسن الزمن . فما الانسان بغير الحيوان ، ولا بأفضل منه ، بل انه متحدر هو نفسه من السلسلة الحيوانية ، وصلات قرباه ببعض الانواع قريبة ، وبغيرها بعيدة . وفتوحاته الخارجية لم تتوصل الى محو علامات هذا التكافؤ التي تتجلى ان في بنية جسمه وان في استعداداته النفسية . وذلكم هو الإذلال الثاني للترجيحية البشرية : الإذلال البيولوجي .

ج - غير ان الإذلال الثالث ، وهو من طبيعة سيكولوجية ، اشد هذه الإذلالات وقعا وتأثيرا فيه .

فمهما تنحط مرتبة الانسان خارجيا ، يظل يشعر بأنه سيد نفسه في ذات نفسه . وقد تكون في مكان ما ، في قلب أناه ، جهاز مراقبة وظيفته ان يتحقق مما اذا كانت انفعالات المرء واعماله تتفق ومطالب الانا . فان لم تتفق وإياها ، لجمها بلا شفقة وردعها . ويقوم الإدراك الداخلي ، الشعور ، بتبليغ الانا بجميع السيرورات الهامة التي تجري في الجهاز النفسي ، وتقوم الإرادة ، على ضوء هذه المعلومات ، بتنفيذ ما يأمر به الانا ، مصححة ما كان يود او يتحقق بكيفية مستقلة . وآية ذلك ان هذه النفس ليست بالبسيطة ، وانما هي بالاحرى تراتب من هيئات عليا ودنيا ، تشابك من حفزات تسمى الى تحقيق ذاتها باستقلال عن بعضها بعضا ، وتتناظر مع العدد الكبير من الفرائز ومن العلاقات بالعالم الخارجي ، على ما بين الكثير منها من تناقض وتناف . ومن الضروري للوظيفة النفسية ان تتطلع الهيئة العليا على كل ما يجري الاعداد له ، وان تنفذ ارادتها الى كل مكان كيما تمارس فيه تأثيرها . وبذلك يشعر الانا بأنه يستطيع الاطمئنان

سواء إلى تمام المعلومات التي يتلقاها ونزاهتها ام الى تنفيذ  
الوامر التي يصدرها .

لكن على غير هذا النوال تجري الامور في بعض الامراض ،  
وبالتحديد في الاعصبة التي تصدنا لدراستها . فالانا يشعر  
بالتضايق ، ويكاد يصل الى حدود قوته في داخل بيته ، النفس .  
فاذا بأفكار تنبجس فيه من دون ان يعرف لها مصدرا ؛ ويفقد  
القدرة على طردها عنه . بل يبدو ان هؤلاء الضيوف الغريباء اقوى  
حتى من اولئك الذين القوا عصا الطاعة لانا ؛ فهم يقاومون جميع  
قوى الإرادة التي كانت قد اثبتت فعاليتها ، ولا يدون تأثرا  
بالتنفيذ المنطقي ، ولا يؤثر فيهم اثبات الواقع المنافي . او قد  
تظهر إجباريات تبدو وكأنها صادرة عن شخص اجنبي ، فينكرها  
الانا ، بيد انه يخافها ويخشها مع ذلك ، فيضطر الى اتخاذ  
تدابير احتياطية ضدها . ويقول الانا بينه وبين نفسه ان ذلك  
مرض ، غزو اجنبي ، فيضعف من يقظته ، لكنه لا يستطيع ان  
يفهم لماذا يساوره مثل هذا الشعور العجيب بالعجز .

صحيح ان الطب العقلي ينكر ان تكون هذه الظواهرات من  
فعل ارواح شريرة خارجية اتحمت الحياة النفسية ، لكنه يكتفي  
بعد هذا الإنكار بالقول وهو يهز كتفيه : انحطاط ، استعسداد  
ورائي ، نقص تكويني ! وبالمقابل يأخذ التحليل النفسي على عاتقه  
فك لفز هذه الحالات المرضية المقلقة ، وينظم ابحاثا طويلة  
ومدققة ، ويصوغ مفاهيم بديلة وانشاءات علمية ، ويستطيع في  
خاتمة المطاف ان يقول للانا : « لا شيء غريب قد دلف اليك ،  
وانما هو جانب من حياتك النفسية الخاصة اقلت من معرفتك  
ومن سلطان ارادتك . ولهذا السبب اصلا تجد نفسك في منتهى  
الضعف في دفاعك ؛ فأنت تصارع بشرط من قوتك ضد الشطر  
الاخر ، ولا يسعك استجماع قوتك كلها كما تفعل فيما لو كنت  
تواجه عدوا خارجيا . وليس اسوأ شطر من قواك النفسية ولا

اتفهه هو ما ينتصب في وجهك ويستقل عنك على هذا النحو .  
والخطأ ، ينبغي ان اقول ذلك ، خطأك . فلقد بالغت في تقدير  
قوتك حين خيل اليك انه بمستطاعك التصرف على هواك بغرائزك  
الجنسية وانك لست مضطرا الى ان تقيم اي اعتبار لصبواتها  
وتطلعاتها . عندئذ تمردت عليك وسلكت طرقها السرية الخاصة  
لتنجو بنفسها من التمع ، واخذت حقها على نحو لا يمكن ان  
يرضيك . وانت لا تعرف كيف تدبرت امرها ، وأية طرق  
اختارت ؛ وحدها نتيجة هذا العمل ، اي العرض الذي يتظاهر  
بالالم الذي ينتابك ، وصلت الى علمك . ولهذا انت لا تعترف بهذا  
العرض فسيلة من غرائزك المكبوحة ، وتجهل انه اشباع بديل لها .  
«غير ان كل هذه السيرة ليست ممكنة الا بشرط واحد : ان  
تكون على ضلال من امرك ايضا بصدد نقطة هامة اخرى . فأنت  
تعتقد انك تعرف كل ما يجري في نفسك ، شريطة ان يكون على  
درجة ما من الاهمية ، لان وعيك قمين بأن يعلمك به . وعندما  
تنقطع عنك اخبار ما يجري في نفسك ، تسلم بطمأنينة تامة بأنه  
لا يجري فيها شيء . بل لن تحجم عن اعتبار «النفسى» مطابقا  
لـ «الواعي» ، اي للمعروف من قبلك ، وهذا بالرغم من دماغ الادللة  
على انه تجري في حياتك النفسية باستمرار اشياء اكثر بكثير مما  
يمكن ان يتكشف لوعيك . اذن دعنا نردك علما حول هذه النقطة !  
«ان النفسي لا يتطابق فيك مع الواعي : فان يجري شيء ما  
في نفسك وان يأتيك فضلا عن ذلك علمه ، فما ذلك بشيء  
واحد . صحيح ان جهاز الاستعلام الموضوع في تصرف وعيسك  
يمكن ان يفي عادة بحاجاتك . ويسير عليك بالتالي ان توهم نفسك  
بأنك تعرف كل ما له قدر من الاهمية . ولكنه في العديد من  
الحالات يخذلك ، وعلى سبيل المثال في حال نشوب واحد من تلك  
الصراعات الغريزية ، وعندئذ لا تذهب ارادتك الى ابعاد من حد  
معرفتك . غير ان معلومات وعيك تلك هي على كل حال ناقصة ،

يقدم على طبق من التجريد هاتين الاطروحتين ، الشاق احتمالهما على النرجسية : اطروحة الاهمية النفسية للجنسية Sexualité ، واطروحة لاشعورية الحياة النفسية . بل هو يسوق الدليل عليهما بواسطة مادة تعني كل انسان على حدة ، وترغم كل واحد على اتخاذ موقف من هاتين المشكلتين . ولكن لهذا على وجه التحديد يجرى على نفسه العداء والمقاومة البشرية اللذين ما كانا لهما الا ان يتراجعا جافلين امام الاسم الكبير للفيلسوف .

وفي كثير من الاحيان غير موثوقة ؛ وفي احيان اكثر قد لا يأتيك علم الأحداث الا بعد حدوثها وبعد ان يسقط الامر في يدك ازاءها . ومن يستطيع ، حتى عندما لا تكون مريضا ، ان يتكهن بكل ما يدور في نفسك مما ليس لك به علم او مما يأتيك عنه كاذب العلم ؟ انك لتتصرف كماهمل مطلق يكتبني بالمعلومات التي يزوده بها كبار اهل البلاط ولا ينزل الى الشعب ليسمع صوته . الا عد الى نفسك وتعمق فيها ، وتعلم واولا ان تعرف نفسك ، فعندئذ ستفهم لماذا ستقع مريضا ، ولعلك ستتحاشى ان تصبح كذلك فعلا» .

هذا هو الخطاب الذي يود التحليل النفسي توجيهه الى الانا . بيد ان الاضافتين اللتين يضيفهما الى علماء والمثملتين في ان الحياة الغريزية الجنسية غير قابلة للترويض الكامل في داخل انفسنا وفي ان السرورات النفسية هي بحد ذاتها لاواعية ولا تغدو في تناول الانا وفي امرته الا عن طريق ادراك غير كامل وغير اكيد ، تعادلان التوكيد بأن **الانا ليس السيد في بيته** . وهما تشكلان الإذلال الثالث للكبرياء البشرية ، وهو إذلال سأنعتسه **بالسيكولوجي** . فهل من عجب في هذه الحال ان ضمن الانا بعطفه على التحليل النفسي وأبى بعناد تصديق مدعاه ؟

ولعلم قلائل من يدركون الامر على حقيقته : فالتسليم بفرضية السرورات النفسية اللاواعية خطوة تترتب عليها نتائج بالغة الاهمية بالنسبة الى العلم كما الى الحياة العملية . لكن لنسارع الى القول بأن التحليل النفسي ليس هو اول من خطا هذه الخطوة . فقد سبقه على هذا الطريق فلاسفة مشاهير ، ونستطيع ان نسمي منهم في المقام الاول المفكر الكبير شوبنهاور الذي تعادل «الارادة» اللاواعية التي قال بها الفرائز النفسية التي قال بها التحليل النفسي . وهذا المفكر هو عينه الذي ذكر البشر على كل حال ، وبكلمات لا ينتسى عنفوانها ، بأهمية صواتهم الجنسية الموهون من شأنها على الدوام . والفضل الوحيد للتحليل النفسي انه ام